أخبار آخر العُشَّاق

برهان الخطيب

الكتاب: أخبار أخر العُشَّاق (رواية)

المؤلف: برهان الخطيب

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٧

رقم الإيداع: ١٩٦٨٨ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 228 - 1

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس: ٢٧٢٣٨٠٠٤ (٠٢) ، ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

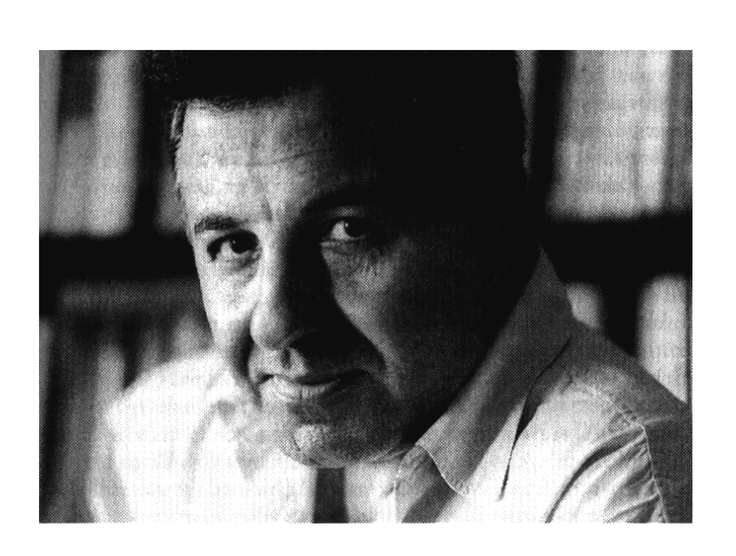
www.shams-group.net



برهان الخطيب

أخبار آخر العشاق

رواية



إهداء

إلى ليث،

آمال،

حسن

المحتويات

القسم الأول : عشاق الفيافي

القسم الثاني : عشاق المنافي

القسم الأول

عشاق الغيافي

▪ **خبر ١**

إذا هـوى

يتساءل السائق، وهو رجل سمين في بدلة زرقاء عتيقة، على رأسه عقال غليظ ويشماغ قذر:

– كم تقدّر يدفعون لنا عنه سيد إحسان؟..

لوجه السائق تعبير باك لا يتغير حين يبتسم، عيناه مائلتان إلى أسفل، أنفه وفمه قمع مقلوب، نظرته منطفئة دامعة من تأثير العمش، ثابتة لا تتغير رغم سرعة عالية للسيارة، رغم انعطافات خطرة مباغتة يؤديها..

يتأخر إحسان في الرد، شاب في بنطلون وقميص، تحمي عينيه نظارة سوداء من أشعة الشمس المتوهجة في الخارج، يقرض شفته السفلى منتبها لتغيرات المشهد عبر زجاج السيارة، أصابعه متصلبة على حافة مقعده.. يفصح أخيرا:

– لا أدري..

نبرة السائق باكي الوجه بطيئة محتجة، صوته خوار ثور مذبوح:

- سكوتي سكّاتي مهندسنا... على الله عسى ننال الجزاء أخر التعب هذا.

تقفز السيارة عند عبور حفرة صغيرة، الشاب ينظر إلى الوجه الباكى:

- بالتأكيد.. لا أقل من مبلغ كاف لشراء.. ذمّة محترمة!

لا يبتسم السائق، يتنحنح، يتململ، يكرِّر مرسلا نظراته المنطفئة الدامعة:

- على الله.

الشاب يشجعه:

- أسرع أكثر اسطه سليم.. نلقاه حتما هنا هناك.. لا يمكنه الابتعاد..

تقفز السيارة مرة أخرى.. السائق سليم يطمئنه:

- لا يمكنه الإفلات منا مهندس إحسان.. عقل مفكر لحضرتك زائد منفّذ صبور مثلي وعنتيكة شغالة تحتنا مثلث عصري لا يُبز لا يُقهر.. وأين يمكنه الاختفاء منا والأرض راحة يد مبسوطة قدامنا!

الشاب يؤكد:

- أريده حيا مهما يكلف الأمر.. متعب.. يكاد يموت من العطش..

يتمعنه السائق من زاويتي عينيه سريعا دون تكلف مشقة التفات إليه:

- احذر يظن لمعان عينك وراء النظارة حنفية ماء يفقأها ليشرب.

يتلفت الشاب يقظا ينقب الأرض الجرداء.. ممتدة حولهما بلا انتهاء:

- نوعه نادر.. مغامرة على أي حال.. يستحق كل ما نعمله.

- استحقاق بقدر ثمنه.. لا يعادل بأي حال قيمة واحدة من عينيّ.

السيارة لما تزل منطلقة سريعا على الأرض المتلاشية في وهج الشمس..

ويفلت السائق ضحكة مبطنة، ينقر إصبعه على زجاجة السيارة أمامه:

- أنظر.. ذاك هو هناك.. ميّزته قبلك.. رغم العمش.

على الأرض الحصباء في المدى البعيد طائر غريب أبيض هائل الجسم، يضم جناحيه حوله بقوة، رأسه مائل نحو الأرض، نظرته مصوبة إلى أمام، يتفحص كل شيء، عيناه على الجانبين دائرتان من الانتباه، تعبا من حمل رأسه الضخم المدجج بمنقار كاسح مشهر منجلا صغيرا..

لا يرفع رأسه عن الأرض، لا يتقلص لا ينبسط جناحاه، يواصل التحديق في السيارة المقتربة إليه، ريشه الأبيض قذر متساقط في نواح من جسده، ارتفاعه يكاد يعلو قامة الإنسان، يصفر الشاب بلا إرادة، يركز نظره فيه، يمد يده للسائق يهدئ من انطلاقته، تعصف به دهشة:

- تمهل.. لا أدري ماذا يفكر ذلك الطائر الملعون.. من أين جاء.. ماذا يدفعه إلى الصحراء القاحلة وحيدا؟!

يتوقف السائق سليم، تجتازهم غمامة الغبار، في عمشه يراقب المشهد لا يبدو على وجهه انفعال، الطائر العنيد لا يبعد عن مثلثهم الأعند أكثر من سبعة أمتار، في أتم وقار في لامبالاة يبقى الطير حانيا رأسه نحو الأرض، يحدق فيهم عن انتباه خفي بنظرة متحدية متسائلة..

السائق سليم يشرح في كامل الجد لرفيقه المدبر المفكر مهندس إحسان:

- عجيب.. هذا رخ منقرض.. سليل رخ السندباد في ملّتي واعتقادي!

الشاب في دهشته يواصل النظر إلى الطائر الشارد الثابت في آن:

- قلت لك.. هذا نسر أبيض.. نوع نادر جدا.. يولد مرة واحدة بين مئات النسور.. لا يولد إلاّ بطفرة وراثية!

السائق يمسح العرق المتصبب عن وجهه بمنديل أزرق عكش:

- وموطنه الجبال؟.. عجيب.. ماذا وراء لجوئه للصحراء المميتة!

الشاب يقرض زاوية شفته السفلى:

- الفرات قربنا هناك.. ثم.. ألا ترى.. إنه عجوز.. لعله جاء ينتحر.

يلتفت السائق في عينيه الدامعتين نظرة مشفقة:

- ينتحر؟!.. العوذة.. ولماذا وعنده سماء واسعة سيد إحسان!

نبرة الشاب محايدة.. لامبالية:

- يصادرون منه تحليق الأعالي.. طائرات.. تلوث.. شيخوخة..

صمت ثقيل يسود. يفتح السائق فمه محاولا استئناف الحديث.. لا يجد كلمة تلائم المشهد.. يخيم جمود.. إحساس مأساة.. يطبق شفتيه يعود لتأمل وجه النسر..

إنما لا يمكنه تحمل صمت مشحون بأفكار ومعان غريبة.. يستهجن:

- عجيب.. ينتحر؟!.. قُل غيرها!

الشاب أيضا يزم شفتيه.. يكبح كلامه.. تأخذه تصورات معقدة بعيدا:

– مجرد فكرة سيد سليم.. لا تأخذها مأخذ جد..

ثم في هدوء يفتح باب السيارة، يتناول من المقعد الخلفي بطانية ثخينة، يتأكد السائق من أن رفيقه ينوى فعلا إمساك النسر حيا.. يحذره:

– احترم الشيطان لا تخرج إليه.. يفقأ عينيك.. يأخذك إلى حيث لا نعلم.

إحسان وهو يترجل من السيارة:

– فعل الشيطان غير مدروس أدري.. لا تخف.. أروع لحظات المطاردة أمامنا..

الشمس في الخارج تمور غضبا، تلقى أشعة حامية عليهم في شراسة، والأرض ممتدة في استسلام تام تحت اللهيب، غير بعيد عن السيارة أفاع تزحف، ضب أغبر بطول ذراع يخرج رأسه من جحره، يفغر فاه، يلهث، يرقب تقدم الشاب نحو النسر، يبسط البطانية بين يديه.. يسرع الضب للعودة والاختفاء داخل جحره..

النسر يظل يحني رأسه نحو الأرض، ترصد عيناه كل التفاصيل أمامه، صياده يقترب جدا إليه، يتململ الطائر ضجرا من إزعاج، يفرد جناحيه أخيرا بطيئا واثقا من نصر.. لو يحدث اشتباك.. لكنه.. لا ينجح في طيران، يحجل، جناحاه

يخفقان على الأرض في محاولة فاشلة لإقلاع.. يركض.. يركض.. يتمكن أخيرا من الارتفاع قليلا، في جهد بالغ يضرب جناحاه الواسعان الهواء.. يرتفع أعلى.. أعلى.. يتمكن من الهرب ثانية..

لا يفلح الشاب في اللحاق به.. في رمي البطانية وإيصالها إليه تماما..

يرفع إحسان يده أمام وجهه يتقي أشعة الشمس، يرافق طريدته بنظرته أيان أنّى يميل، النسر يبسط جناحيه، يعلو أكثر، يدور فوقه مرات، ينظر إلى مطارده الصغير تحته، يتفحصه، ينحدر بعيدا عن السيارة..

الضب الأغبر يعود يخرج رأسه من جحره.. أفاع قربه تشاغله.. لا يميز موقع النسر.. ربما بسبب تحليقه العالي.. أو بسبب نظره المحدود إلى القريب منه.. يعود الشاب إلى السيارة..

السائق يسأله والسيارة منطلقة نحو النسر:

– نحن في اتجاه الطريق العام؟

ينظر الشاب إلى بوصلة صغيرة مثلثة الشكل يخرجها من جيبه.. يقول:

– لا.. نحن مقابل الفرات.

السائق وعيناه الدامعتان تشيان بضيق وانزعاج:

- لولا هذا الحُك تلتهمنا الصحراء قبل اهتداء إلى الطريق العام حتى لو نصرف أربعة أيام نبحث..

يمسح الشاب نظارته السوداء بمنديله.. ومن غير مبالاة:

- هذا ليس حُكّا.. إنها بوصلة.

السائق يعترض متعبا معاتبا:

- كنا ندعوه الحُك عندما كنا في الجيش وشكله دائري.. كل شيء مثلث اليوم..
- الأشكال والطرق تتغير المضمون باق.. تحديد الاتجاه.. المساعدة على بلوغ الهدف..

يواصل السائق نقاشه المفتعل تخلصا من ضجر وإحباط:

- تحديد الهدف أصعب من بلوغه أحيانا.. يحتاج فطنة.
- أصعب لمن يفتقد المعلومة والتجربة.
- معلومتنا هدفنا ذلك النسر إليه يطول مشوارنا ودوام دائرتنا ينتهي.
- الدوام مرن تدري.. والنسر ليس هو الهدف.. هدفنا مغامرة نحن فيها.
- تكذب سيد إحسان.. الهدف هو الثمن.. عند البيع.
- إذاً هدفانا مختلفان سيد سليم مع وجودنا في سيارة واحدة.

- أكون غنيا مثلك أتكلم مثلك مهندس إحسان..
- الغنى غنى التجربة لا المال أبو السُلم..
- خذ تجربتي الأغنى بفقري وعذابي أعطني مالك.. ما رأيك؟!
- العذاب خيبة تجربة يا سليم.. والكل فقير قياسا بالكامل.
- يعني نعود إلى البداية في النهاية.. الثمن هو المهم..

تقفز السيارة مرة أخرى باجتياز عقبة صغيرة.. يتذمر سليم السائق:

- عجيب.. ما أكثر الحصى في هذه الصحراء..

النسر يهبط رويدا رويدا.. يعقب مهندس إحسان:

- لذلك سموا المنطقة الحصوة. مخلفات فيضانات قديمة من زمن نوح.
- نهبه على قدم ساق.. حتى التراب لا يبقى أخيرا!
- عشائر نفطاية ودولاب الهوا وراء النهر لو تستفاد منه تصد فيضانه.

السيارة لما تزل تتقافز كالحصان الهائج على أرض صحراوية حصباء عاكسة وهج شمس حامية مد البصر في كل الجهات.

يغير النسر اتجاهه فجأة..

يحجز سقف السيارة مجال رؤيته، تدور السيارة محاولة استعادة مشهده في الجو، إلاّ انه يختفي تماما. السائق يلتفت حينا وآخر نحو رفيقه متسائلا بنظرة قلقة عما يمكن أن يكون قد جرى له، للنسر..

يوقف السائق السيارة.. يتنهد:

– لو نغويه بأفاع نصطادها لجوعه ينزل.. أو ممكن سقط فجأة ولا ندري!

الشاب في حيرة أيضا:

– لا أعتقد.. سقوطه لا يمكن أن يمر دون انتباهنا!

يسكت لحظات.. يضيف:

– لا أدري تماما.. هو متعب.. ونحن أتعبناه كثيرا..

ينقبان بعينيهما الأرض الجرداء إلاّ من نباتات برية مرتفعة هياكل أشباح جامدة.. لا يلوح في البراح أثر لنسر.. ولا لطير آخر أو بشر.

يدير السائق محرك السيارة، ينطلق يبحث هنا هناك في أمل العثور عليه طائرا في الجو، ممددا على الأرض، حتى أن السائق يبسط شفتيه الخشبيتين محاولا الابتسام أول مرة يقول:

– والله عظيم.. تمكنا منه.. تمكنا أخيرا من أن نصرع النسر!

مهندس إحسان يعقب مصوبا إليه نظرة ذات مغزى:

- لا تعلن انتصارك قبل ولا بعد تحقيقه.. تضربك عين.. نحن لم نعثر عليه حتى الآن سيد سليم..
- تدافع عنه؟ واضح عليك من عشاق الطبيعة.. وتصطاده لتبيعه!
- كذبت عليك.. أريده لبيطري.. المرض واضح عليه.

وتهتز السيارة هزة عنيفة، تجتاز حفرة صغيرة أخرى، المرآة الجانبية تنحرف عن مكانها، يكاد السائق أن يطلق صرخة رعب قوية، وجه النسر على المرآة قربه، واضح، ثابت، منقاره المعقوف، منجل قد يحصد أكبر رأس، من عينيه الكبيرتين الضاريتين يحدق فيه.. نظرة ثاقبة قوية.. يصيح السائق كاتما صوته:

- أنظر!

يشير إلى المرآة.. يسرع إلى سحب نافذته الجانبية..

يميل النسر رأسه قليلا، يبقى يحدق فيه بعين واحدة.. قبل اكتشاف الشاب مكانه على سقف السيارة يخفق النسر جناحيه بقوة، حتى أن نهاية جناحه الأيمن تصفق زجاج النافذة تكاد تحطمه، يندفع إحسان مبتعدا عنها.. على وجهه خوف من هجوم غامض مفاجئ..

النسر لا يتمكن من التحليق بعيدا، ينحو إلى إنزال عشوائي اضطراري، يرتبك أمام السيارة قريبا منها كثيرا، يخفق

جناحيه في محاولة مستميتة لارتفاع، نظرته تزداد غضبا، يعجز عن إدامة إقلاعه، يرتفع، ينخفض، ينفرج منقاره المعقوف في كسر آت.. لصمت مشين من رائد الأعالي..

يبقى النسر يركض، يظل يصفق الأرض بجناحيه، السيارة تتبعه، يرتفع حينا، يسقط حينا، تقترب السيارة إليه، تصير خلفه تماما، يفتح الشاب الباب الجانبي متناولا البطانية الثخينة، يعدو سريعا في أثره، يبسطها بين يديه، قربه يرميها عليه، النسر يندفع.. يرتفع بقوة مفاجئة.. ملقيا على مطارده الصغير نظرة سامة.. تشبه نظرة إنسان يُلقى في سجن ظُلما..

يحلق النسر عاليا، جناحاه يتماوجان في تثاقل وجهد، الشمس قرص أحمر ملتهب، الأرض صفراء مستسلمة، والسماء بيضاء من السموم.

يدور النسر حائما حول السيارة، السيارة نقطة رمادية متحركة في صحراء ممتدة بلا انتهاء، وحش جبان يغلف نفسه بحديد يطارده بلا هوادة، النسر يبقى يرصده، ينظر إلى أسفل، نظرته تشتعل غضبا...

يلوي النسر رأسه يبسط جناحيه عريضا، ينحدر بعيدا عن السيارة في طيران انسيابي.. عازما على أمر ما.. تتبعه السيارة على الفور..

العيون الزجاجية للوحش الحديد تطرده دائما.

الشاب والسائق يراقبان النسر من مكانيهما على المقعد الأمامي، يخمنان إن النسر يجرب آخر محاولات الهرب، يبتعد عنهما.. يبتعد.. غير إن ابتعاد النسر لا يطول هذه المرة.. يستدير.. يدور دورة واحدة حول نفسه.. في رقصة حرب غامضة.. ينتبهان إليه يتجه نحوهما.. مباشرة.. لعل النسر يفضل الهرب في الاتجاه المعاكس.. فعل آدمي.. بعد اكتشاف لا جدوى هربه من خطر في اتجاهه الأول..

تتوقف السيارة في انتظار الاستقرار على رأي، على اتجاه معين له، يواصل النسر انحداره من الأعالي، يبدو متجها نحو السيارة تحديدا، في غير تردد، النسر ليس مخاتلا، يستمر في انحداره نحوهما، قراره يختطف بمخلبه مطارده الوحش يرميه بعيدا.. أو لعله يقرر الاشتباك معه.. لا بد من القضاء على وحش جبان يطارده مغلفا بالحديد.. يقترب بسرعة هائلة إليهما، عيناه تلمعان سيفين في وجه الشمس.. لحظةً باهرة ينقض على زجاج السيارة الأمامي، يرتطم به، يتهشم الزجاج، تتطاير شظاياه..

عينا الوحش الحديدي فقئتا.. يُهزم.. والنسر يسقط أمامهما مجندلا.. على بدن السيارة.. بلا حراك.. يخرجان إليه.. ينفضان عنهما رشق الزجاج..

هناك يبدو ضخما أكثر من المعتاد، ريشه الأبيض ليس قذرا كما يلوح للرائي أول مرة، لكنه أصفر، حائل اللون، بفعل تأثير الشمس والتحليق في الأعالي.. أو بسبب غبار الصحراء.. أو نتيجة الكبر والهرم.

النسر وهو ميت يحتفظ بعينيه مفتوحتين، فيهما نظرة لائمة متوجهة نحو السماء.. السائق والشاب يتأملانه في وجوم.. الأعمش يتحسر:

- فقدنا كل شيء.. هيا إلى دائرتنا قبل الانتباه لتأخرنا عن العودة!

إلاّ أن مهندس إحسان يفصح في هدوء خلال ابتسامة حزينة:

- على العكس.. رأينا على الأقل كيف تموت النسور!

- تقصد كيف حوّلنا الشيطان إلى هدف له..

غير بعيد عن السيارة أفاعي البرية تتسلل نحوهم، رائحة دم النسر المسفوح على مقدمة السيارة تفوح بعيدا، يقطر بطيئا متصلا إلى الأرض.

يعود السائق الأعمش إلى مقعده ضجرا:

- ما فائدة كل ما نرى.. الفائز الوحيد تلك الأفاعي.. أزح جثته عنا إليها.



▪ خبر ٢

الأفاعي لا تمزح

لا نعرف متى ظهرت الأفاعي في بيتنا أول مرة. معنا تعيش، يكرهها أخي الكبير، تحبها جدتي، نحن عشاق الغموض وسط مثلثهم لا ندري ما الرأي والعمل. في الليالي نسمع أصواتهن تفح بصوت ناعم غامض، يتكلمن، يدعوننا لدخول عالم غريب عجيب.. وراءهن.

جدتي تقول لأخي الكبير:

- وليدي إحسان لا تلمسوها – تقصد شيخة الحيات، الوقحة تستمر في فحيحها حتى الفجر بعد صمت الأخريات – هذه حية مباركة خيرة، من الملائكة الصالحين، مَن يسبب لها الأذى يرجع عليه يصيبه في أعز أعزائه.

جميعنا نسكت بالطبع، حتى والدتي والدي يرضخان، لا يأبهان لأصواتهن الجوفية الملتوية المتسللة مع هبوط المساء، تطلع جدتي إلى مهبط السلم أو حتى شجيرة العنب الملعونة منها على حافة البئر، إلى المكان الذي ينبعث منه الكرير المتخفي المرعب، تبسمل مرتين ثلاثا، تبدأ حديثا طويلا معهن، تسألهن

عن راحة موتانا، طلباتهم، تضحك معهن، تنقل إليهن تحيات كاذبة منا، ثم ترجوهن أن يبلغن والدها المرحوم سلاماتنا، ويا لدهشتنا جميعا: الفحيح ينقطع!
يعم البيت هدوء وسكون، ثقيلان، إلى أن ينقشع الليل.

بعض الليالي - هن قليلات - تستمر دعواتهن الغامضة تلك حتى الصباح، لا ندري ما خطبهن، ماذا يتبادلن من كلام بينهن، نغم في أصواتهن يشبه العتاب، تتكلم أحداهن، تسكت الأخرى، تواصل صاحبتها الكلام تسكت الأولى، نحن تحت اللحاف نلبد، ننصت، أو نقترب نتدفأ إلى جمرات تضعها جدتي في منقلة وسطنا تحت منضدة صغيرة تعزل عنها اللحاف فوقها.. جدتي تنقل أحاديثهن إلينا.. مطأطئة رأسها لسماع المزيد من لغوهن عن الغيب والعيب.. عن جسور ستة تبنى وحروب مرسومة.. عن شارع جديد يُمد قربنا قد يهدم بيتنا العتيق ووجوب انتقالنا منه.. عن تحوّل بنات إلى رجال ورجال إلى بنات.. عن حقائق تصير أوهاما وأوهام تصير حقائق.. عن كل ما هو غريب يصير منا كالقريب..

في ليالي غضبهن تقول جدتي يائسة:
- لا عليكم، ناموا، كل المشاكل بسبب شجيرة العنب الملعونة تلك، يحبها أبوكم لا أدري لماذا!

نقول:

- ونحن نحبها جدة!

تصيح:

- ناموا تنام طابوقة عليكم! لكن أحدا منا لا يمكنه النوم وتلك الأصوات تتصاعد من الساحة القريبة، تتصحنا أن نحسب في رؤوسنا عدد جوامع المدينة، نحسبها، نتردد قبل أن يناديها أحدنا: جدة.. أكملت الحساب! تطلب منا أن نحسبها ثانية، نبدأ الحساب مرة أخرى. أخوي الكبير إحسان يضجر أحدى المرات يقول انه سيأخذ (قامة) والدي يخرج لهن يقطع رؤوسهن واحدة واحدة.

تقول جدتي له عليه غدا أن يجلب لها من العطار كمية بطنج، ترشه تجعل عزيزاتها يتخدرن يهربن من رائحة النعناع، أو يزحفن على الأكثر إلى أصل الرائحة عند العطار هناك ينتقمن، لكن يتفاهم هو معهن، عنده مواد تملص شارب أكبر حية..

تقنع جدتي إحسان أخيرا بالهدوء. لكنه يريد أن يبول ونحن نعرف كرهه إظهار خوفه من الذهاب وحيدا إلى الخلوة، يصمت فترة قصيرة ثم لا يبقى يحتمل، يصرخ في وجه جدتي:

- والله لأقطعنّ رؤوسهن واحدة واحدة.

فعلا، نراه ينهض يتجه إلى الدولاب.. لكن جدتي تمنعه. بعد ذلك يجد الشجاعة يخرج إلى ظلمة الليل وحيدا، عندما يعود يسأل فيما إذا كان أحد منا يرغب في الذهاب إلى مكان ما، هو على استعداد لمرافقته، بل وانتظاره حتى يقضي حاجته.

بعد تلك الحادثة نشعر إن أخانا الكبير وعِلمه يصير خارج طوقنا، نراه في الليالي المقمرات يصل حتى حافة البئر، وإذ يتصاعد الفحيح يكتفي بالوقوف عند الدرجتين المؤديتين إلى الساحة، يمد يده يقتطع ورقة ليمون أو عنب، يجيئنا معها مغنيا: حب الوطن فرض علي افديه بروحي وعينيّ.. يقول:

– شموا الرائحة الطيبة!

لكننا نعرف انه يريد بذلك إثبات حقيقة وصوله إلى هناك وبالتالي تفوقه علينا. ليس نادرا يشعر أحدنا حاجة لشرب الماء والغرفة خالية منه، يتوجب على أحدنا إذاً التوجه إلى البئر لجلب الماء، جدتي عادة تقوم بذلك العمل، تظل تبسمل حتى تمسك يدها حبل السطل، تسحبه في هدوء وهي تحادثهن، ينقطع الفحيح إذا هن يبتن الليلة هناك، نقف أعلى الدرجتين المؤديتين إلى الساحة نختض.. من البرد، نرقب جدتنا العجيبة – في صندوقها نعثر دائما على حبات عفص وبرتقالات صغيرة خضراء يابسة بحجم الدعبل تستخدمها دواء لمن

يقصدها – تأتينا بالماء نشربه كأنه نابع من نهر الكوثر في الجنة..

لا شيء في الدنيا يرهب جدتي. مرة تجلب لنا الماء نسمعها ترفع صوتها: بسم الله الرحمن الرحيم.. عدة مرات. تشرئب رقابنا نستطلع الخبر، السطل لما يزل يبعد عنها مسافة ذراع وأكثر، تتأخر لحظات في رفعه تنظر إلى أسفل، نسألها وجيب قلوبنا يرتفع أعلى من الطرزينة:

– جدة!.. ها؟!

تفاجئنا صوتها رخيم هادئ:

– قسمتنا اليوم أن لا نشرب الماء.

تعيد السطل في هدوء أيضا إلى أعماق البئر. ترجع إلينا نروح نستفسر منها عما يقوله القمر، تجيبنا بعد تكرار وإلحاح:

– الماء اليوم مر، لا يحلو إلاّ في الصباح!

نعجب نلهج بالسؤال:

– لكنك لم تذوقيه بل يدك لم تمس السطل!

تقول حاسمة النبرة:

– رأيته اخضر، آت هذه الليلة من جهة النزيزة، لا من جهة الفرات، الماء الليلة غير صالح للشرب وأخشى أن يطول ذلك حتى تزاح الغمة!

– وما هي هذه الغمة يا جدتي؟!

– شر كبير يرتكبه بني آدم كبير! ليت رب العالمين لا يسمح يتحول لون الماء من الأخضر إلى الأحمر.

لا نصدقها أول مرة.. ينحاز علمها المتين إلى خرافة لا تبين..

تدفعنا نحن عشاق الغموض والحكايات إلى النوم، نحن نسأل أنفسنا عن حقيقة ما رأت وترى. في ليال أخرى حاجتنا لشرب الماء تكبر تتكرر يتطوع أخونا إحسان للذهاب بعد تردد لجلبه، إلاّ إن جدتي لسبب ما تمنعه من التوجه إلى البئر، عند ذاك يشتد عزمه، ونحن نعرف أيضا إن منع جدتي له يريحه، يخلصه من ورطة، من عرضه الذهاب إلى مكان الخوف والرعب ذاك، بعد أن كان مكان الفرح وشرب الماء. تقوم جدتي بعد ذلك، تلف فوطتها جيدا حول رأسها – تفعل ذلك عندما يحدث أن تقابل غرباء – تقصد البئر، نتسلل خلفها حتى حدود الدرجتين، نلبد خلف الباب نتطلع إليها، نلاحظ إنها صارت هناك أكثر حذرا في خطوها وتردادها أسماء الله والملائكة الصالحين..

يرتفع صوتها في الليل تخاطبهن، تسألهن عن الصحة والأحوال، وهي تسحب حبل السطل.. تتوقف – تماما كتلك الليلة – تبقى تنظر إلى أعماق البئر، على ضوء القمر الأبلق

لا ندري أي شيء يتبيّن، تقول بصوت عال منتهرة: لا اله إلا الله، و.. تنزل السطل. تعود إلينا خالية اليدين مرة أخرى..

– جدة عطشانين!

تأخذنا إلى الغرفة تفهمنا إن الشر المرتكب خارج بيتنا يعمّ علينا، نبيت ليلتنا هذه أيضا بلا ماء..

كذلك في ليلة أخرى، وأخرى، تقول لنا إن الماء رأته أزرق، أصفر، أحيانا نتزود بالماء من النهر القريب في النهار بالطبع، إنما شيئا فشيئا نصير محرومين من بئرنا العذبة التي اعتدنا عليها.. فإلى متى هذا الاحتلال يا أسطه إحسان.. إلى حين لا يبدو واضحا لأعيننا؟ وحين تقول جدتنا ليلة قريبة إن ماء البئر صار احمر والعياذ بالله لا يصدق أخونا إحسان ما تقوله الجدة، يأخذ يشكك في الكثير مما ترويه تقصه لنا، يستحق غضبها. مرة، بعد عودتها من هناك، يتسلل خفية يختفي في مكان ما. نقول هو ينسج مكيدة أو لعبة من ألعابه الكثيرة، نسمعه يصرخ فجأة، في الجو تنفجر طرطشة ماء، نخال انه يفقد طريقه في الظلام أو يختل توازنه يسقط في أعماق البئر، تهرع جدتي نحن وراءها إليه، نرى والدي يهبط من الطابق الثاني تتبعه والدتي فزعين، نجد أخانا الملعون يقابلنا مع ابتسامة مذنبة تطرد عن وجهه شحوبا يستولي عليه..

يبادره الجميع يسألون عما يحدث، يرد بصوت يحاول السيطرة على ارتجافه انه يريد أن يجلب لنا الماء، لكنه يجد كومة من الأفاعي ملتفة على بعضها في بطن السطل. تسكت جدتي، والدي يقول انه سيجلب في الغد سطلا جديدا، هذا يصير منجوس منحوس، والدتي تعاتبه لأنه لا يشتري لنا كوزا أو مشربة منذ زمن العصملي. يعودان إلى مكانهما يتناكحان. نعود مع جدتي إلى حجرتنا نقول على الله التكلان، لا تعنفه، لا توجه له كلاما، يظل اخوي ساكتا مثل ذئب، يشعر بذنب، مع الوقت يروح يحدثنا عما جرى ورأى هناك.. كأنه القادم من وراء البحور السبعة:

- العربيد الأسود رأسه مثل رأس الإنسان، يلف نفسه على حية رقطاء رأيتهما متعاصيين في بطن السطل.. واحدهما يريد ابتلاع الآخر.. تلتقي عيناي عيني العربيد.. يخزرني الجني بن الجان لابتعد عنهما.. ويسقط السطل من يدي.. إلى قعر البئر.. لثقله طبعا..!

اخوي يستأسد أكثر حين يرانا نرتجف، خوفا أو بردا لا ندري، يرفع صوته، يقسم بأنه سوف يقطع رأس العربيد الأسود يطهر البيت من كل الحيات. تسكته جدتي تذكره:

- الأفاعي تلك مثل الأهل.. يعشن معنا منذ أسس أجدادنا البيت، هنّ لا يتعرضن لأحد بسوء، هنّ من ملائكة صالحة،

تحمي البيت تقيه من كل شر ومكروه، استقرارها مؤقتا في تجاويف مثلثة من بئرنا لتحمينا من ماء يصير ليس زلالا حلالا بسبب الشر المرتكب من أشقيائية وحمقى خارج البيت..

نستمتع طبعا من توصيفاتها استمتاعنا من أكل الحصرم..

أخونا إحسان يرد عليها في وقاحة ملوحا يده:

- هناك خارج بيتنا يقيمون شوارع ومباني جديدة وعزيزاتك يفرخن هنا سلالة جديدة لأرض خصامها عراكها لا ينتهي فما شأننا نحن من ذلك!

ترد الجدة:

- عندما ترى ماء البئر احمر تعرف إن لك شأنا في كل ما يحدث هنا أو هناك.

يصيح اخوي:

- وما أدرانا ما تنفث في مياهنا أفاعي أجدادك تلك من سموم وقذارات، هن يبتن في بئرنا متربعات لا نعلم متى نلقاهن ينتظرننا في الفراش!

تدعوه جدتي للنوم، لخوفنا نهزأ من عنترياته نذكره بذلك اليوم الذي يدعو السطل فيه (ططل) وببولاته الشهيرة في الفراش، خوفه من الخروج وحيدا في الظلام. ذلك ماض انتهى، يقول.

تكاد معركة مخدات تنشب إلاّ أن جدتي تتناول مداسها الرهيب الأكثر تخويفا من قنابل الطائرات نخلد جميعا إلى السكينة.

في النهارات لا يبدو لهن أثر، خشخشة طفيفة تتصاعد هنا هناك بعض الأحيان، فنعرف إن أحداهن تجري هاربة من وقوع الضوء أو الأنظار عليها. أخوي الكبير لا يكذب خبرا، يتناول (قامة) الوالد يتوجه إلى البئر في الصباح، تقف جدتي في طريقه، تنتزع السلاح منه، والدي ليس في البيت يُسمح لبطلنا إحسان الصياح كيفما يشاء. مع ذلك يروح يحوم حول البئر، نروح نهوّم وراءه، يسحب السطل لكن لا يعثر على أثر لهن. يجيل بصره في أرجاء البئر، لا يقع على شيء، ينقب في الزوايا والشروخ، لا يلمح أي اثر لهن. لا يعجز من البحث يصعد إلى الطابق الثاني وإلى السطح ثم يهبط بعد فترة يروح يسخن ماءا في قدر كبير حتى الغليان..

جدتي ترقبه من طرف خفي. عندما ينوي حمل القدر التوجه معه إلى السطح تسأله عما ينوي عمله يجيب مغتما:

– أحتاج أغسل دشداشتي.

حقا، الآونة الأخيرة نراه مرتين، ثلاثا، يغسل ملابسه الداخلية بنفسه لا يعطيها لأحد لغسلها، لا نفهم سبب شطارته. لكن عندما نتبعه إلى السطح نجده يبتسم في مكر، يقترب إلى فوهة

شق متعرج ودرجات السلم، ينحني عليه، في حذر يصب الماء المغلي فيه. نبتعد عنه قليلا ، ثم... بغتة، نراه يقلب القدر يتركه ينسكب دفعة واحدة، يتدحرج من درجة إلى درجة محدثا ضجيجا قويا يعم البيت كله، لا يخفت حتى يذهلنا منظر حيات صغيرة بحجم الأصابع تتقافز من الشق تتجه لا على التعيين في جميع الأرجاء، يبهت أخونا الكبير، لا يتصور فعلته الصغيرة تؤدي إلى تلك النتيجة الكبيرة، ينط إلى الخلف، لا يدري ما العمل، يتلفت حوله، لا ينقذه شيء، نهرب نحن متصايحين أصغرنا يبكي عن حرقة يجر طرف دشداشة الذي أمامه، يتصاعد صياح جدتي ووالدتي من الأسفل، يجدها أخوي الكبير فرصة لإظهار شجاعته، يتناول حذاءا عتيقا مهملا لا ندري من أين ينبق، يمضي يضرب به كيفما اتفق، فرح جنوني يسيطر عليه، ما تزال الضجة قائمة حتى نسمعه يصرخ فجأة، يرمي الحذاء، هازا يده في ألم ووحشية..

يطغى صوته على كل ماعداه. تندفع والدتي من مهبط السلم إليه تتناول يده المتشنجة تغرز أسنانها في جانب كفه تروح تمتصها صراخه يتعالى، تبصق أمامها دما هلاميا. تأتي جدتي تلهث، تستند بيدها على ركبتها، تفحص الأرض في أمعان كما لو تقرأ سطورا مخفية فيها، تهز رأسها كعادتها مولولة، تلمنا جميعا تنزلنا السلم تطرد الشر بتمتماتها..

يضجعون أخي الكبير إحسان في الفراش، بين حين وآخر ينظر إلى الورم الناتئ في كفه يغالب البكاء - هكذا نعتقد - يحلف بكل المقدسات على الانتقام من تلك الحيات اللئيمة. بعد حين نقف عند رأسه نكتم ضحكاتنا، يقول:

- يصيبكم ما يصيبني تعرفون معنى وجود الحيات في بيتنا، يجيء دوركم يوما إذا لا نقضي عليها تماما.

في لهجته نبوءة موحية الكبر والتعالي علينا. يضيف :

- والله لاقطعن رؤوسهن جميعا، خاصة ذلك العربيد المرقط فهو رأس البلاء، نقضي عليه نقضي على نسله نخلّص البيت من شره.

بعد مجيء والدي تقتنع جدتي بوجوب عمل شيء، وإلاّ فإن ملائكتها الصالحين مهددة بالقتل. تسكت الجميع بصيحة آخر الأمر تعلن سوف تبحث منذ الصباح عن جاذوم الفوال، هو وحده القادر على جمع كامل حيّاتها والذهاب معهن إلى مقام أمين صالح لإقامتهن الدائمة.

ليلا لا نتمكن من النوم حتى الصباح، عشاق الغموض يأسرهم الخوف في النهاية، لا ندري ماذا يجري لهن، نسمعهن يفحن بصوت غريب كأنه النواح، تخرج جدتي إليهن تحدثهن. لا فائدة. يبقين مشغولات بأخذ رد بينهن حتى يسقط القمر في بيت الجيران، يتسلط هدوء حولنا مخدش بأنفاسنا..

لا ندري من أين يقدمن، نراهن يتسللن في جوانب السقف، يعبرن من جذع إلى آخر، وقت النوم يحين نجد بعضهن متعلق كالخفافيش من الشقوق، يتطلعن نحونا بعيون مفتوحة مهددة تغطيها أغشية شفافة كأنها تطلب منا ترك الغرفة، بل هجر البيت اجمعه. يثور أخوي الكبير يريد إسقاطهن بعصا غليظة ليقطع رؤوسهن بقامة والدي كما وعد من قبل لكن جدتي تجبره على الهدوء مرة أخرى، تهز رأسها كعادتها عند كشف غيب، عن شارع جديد شقه آت إلينا لا ريب، يهجّر ملائكتها أفاعيها من غير ارتكاب العيب. في الصباح تبكر في الخروج من البيت لا تعود إلينا إلاّ ظهرا معها شيخ حول رأسه خرقة وسخة خضراء، يستند في مشيه على عصا، في عينيه لمعان غريب. يفرش أغراضه قرب الباب المؤدي إلى الساحة، يخرج من جيوبه أدعية وحروز ومكعبات معدنية عليها نقوش ورسوم غير مفهومة، يقوم بجولة في أرجاء البيت لا ندري ماذا يهمس في أذن جدتنا العجوز، تقوم تطلب من أخي الكبير أن يذبح لها إحدى دجاجاتها السمينات، تجمع الدم الذي يسيل منها في قدح تأتي به إلى جاذوم الفوال، يتناوله يشرب منه قليلا، يقرأ عليه آية ما، يروح يرش به جوانب البيت وشقوقه وزواياه، ينتظر زمنا يرسم خلاله في أوراقه خطوطا ما حتى تنضج الدجاجة في قدرها على النار. تقدمها جدتي له، تجلس

بعيدا عنه ترقبه وهو يمصمص عظامها يعب حساءها. بعد ذلك يأخذ له غفوة طويلة..

نتحلق حوله نرقب اهتزاز شاربه حين يطلق أنفاسه مصحوبة بصفير القطار. وشك المساء ينهض يلتهم ثلاثة أرغفة خبز ويتوجه إلى شغلته المجيدة، يطوف في أرجاء البيت ينثر الدعاءات والتعاويذ حتى انقضاء النهار. لا نتيجة كبيرة تُذكر عدا إن الأفاعي ليلا تخلد إلى السكينة لا يصدر عنها صوت. يبيت في المكان الذي يفترشه لمجلسه، في الصبح همسة أخرى في أذن العجوز، فتطلب من والدي أن يبعث من السوق بزوج من الأسماك الطازجة.

ما يكاد النهار ينتصف حتى تجيء السمكتان يقطر منهما ماء النهر، يتسلمهما جاذوم الفوال يعمل يعتصرهما لا ندري لماذا حتى يجمع في القدح مقدارا من دمائهما يشرب منه قليلا ثم يرشه يقرأ أدعية خافتة في زوايا البيت مثل الأمس، مرة أخرى يعكف على حروزه وأوراقه يشخبط فيها ما يتفق له لحين تقديم السمكتين جاهزتين محمصتين أمامه، يلتهمهما الكلب ابن الكلب لا يترك لنا غير رأسيهما وعظامهما، والغفوة يتضح إنها عادة لذيذة له بعد الطعام، لا يصحو منها إلاّ عند دنو المساء، يقوم، نتبعه في طوافه في البيت، لكنه يرسل إلى جدتي نظرة كتابية فتلتم علينا تجمعنا لا تسمح لنا بتجاوز

الدرجتين. ويا لدهشتنا وفرحنا نسمعه يغني بصوت رخيم وهو يدور في أرجاء البيت يرقص في تنورة تحتها الكون كله.....

تكـــركبي تكـــركبي في دربي بجـــاه يســـوعٍ والـــنبي

محمد ونوره بحضـــرته تخـــر روحـــي علـــى ركـــبي

تكركبي لعبّـــي بـــلا آه أو ســـبْيك آت لا تعجـــبي

من شـــرك لخـــير تقّلـــبي خلـــيني أهـــيم في طـــربي

علياؤه تسمعنا الأمـــن قريبًـــا يســـود في كـــوكبي

تزداد دهشتنا عندما نلمح العربيد المرقط يظهر له رأسه المثلث من بين أطراف الحطب المرمي في نهاية الساحة، يقترب جاذوم إليه يوجه له كلاما ما هو كلام أعراب ولا أغراب، يمد العربيد رأسه أكثر، يطلع إلينا، نراه أول مرة على أرض الساحة بكامل طوله وغلظه. يخرسنا..

يمد جاذوم يده، يرفع العربيد رأسه قليلا ثم يتوارى خلف الأغصان والحطب. يعود الفوال إلى مفرشه يتمدد عليه ينام لا تتجرأ الجدة أو أحد منا على الاقتراب إليه أو إيقاظه.

يعود والدي من شغله يسأل عن السمكتين يقال له إن القطط خطفتهما هربت بهما، يشمشم الهواء يصعد إلى غرفته. صباحا توصيه جدتي، بعد تلقّي آخر همسة من الفوال جاذوم، على

إرسال قوزي سمين فينظر إليها برهة، ثم ينزل رأسه ويطلع إلى رزقه.

يقضي ساحر الأفاعي نهاره مضطجعا يمسح بكفه الغليظة بطنه العارية، يقوم بواجبه اليومي المعتاد طبعا، يستجمع من القوزي دما، يشرب منه، يرش الباقي في زوايا البيت وجوانبه، يتنحنح في مجلسه كثيرا يتلمظ طويلا، نتمنى لو يرقص مثل الأمس، ينشغل بالنظر إلى السماء والدعاء، يأتيه القوزي ممددا على أكوام الرز، ليس غير دقائق حتى يمسح الصينية بأصابعه، يتجشأ استعدادا لما ينوي عليه. أخيرا يهتز يغني في ساحة البيت فعله يومه الأول..

لا تغادرنا الشمس إلى بيت الجيران إلاّ ونرى العربيد المرقط يظهر رأسه من بين خفايا الحطب ينظر إليه تربطه منذ القدم معه عرى صداقة حميمة، يمد جاذوم يده إليه، لا يبتعد لا يهرب العربيد هذه المرة..

قلوبنا تتطاير في صدورنا أرجوحة، يمسك الساحر عربيده يرفعه أمام وجهه، نراه.. والله شهيد على ما أقول.. يعصر رأس الأفعوان الغليظ بأصابعه الغليظة حتى يستكين له يفتح شدقيه، ينظر إلى داخله، ثم يمد يده يروح يعالج شيئا ما هناك، ثم نراه يبتسم يلفه مثل صوندة طيعة – ذلك العتر يتدلل متلويا أو يقاوم – ويدخله إلى خُرج هيأه لذلك الغرض.

يصخب العربيد هناك ما يشاء لكنه يصير في حرز حريز. بعد ذلك يفعل جاذوم الشيء نفسه مع ثلاث أفاع يظهرن على التوالي، زوجات أو بنات له لا ندري، حتى يجمع في خرجه كومة كبيرة، نخال انه سوف يحملها على ظهره يمضي معها إلى جهة النهر في الأقل، لكنا نراه يضع الخرج قرب رأسه بعد أن يحكم شده، يسلم أمره إلى نومة طويلة لا يصحو منها إلاّ بسماع صياح والدي عندما يعود متعبا يسمع عن اختفاء القوزي السمين الذي تمكن الحصول عليه بهدر مصروف أيام عديدة.

ينهض الفوال آنذاك منزعجا، يصب على والدي نظرة يريد ابتلاعه. ثم يصمت طيلة المساء ومقدم الليل. وإذ تهفت النار في موقد الحجرة نتحسس خشخشة غريبة حولنا، تقوم جدتي ترفع فتيل الفانوس قليلا وقبل أن تجيل بصرها في الزوايا والأركان تلمح شيئا تتسع عيناها له، يفاجئها شبح مخيف فظيع، نشعر هي تكتم صيحة، ولا أدري ننتبه بأنفسنا لذلك أو لأنها تشير.. إلى حيث نجد العربيد المرقط يتسلل جوار فراشنا مبتعدا يفضحه ضوء الفانوس. نهرب من الحجرة في الحال، ينسحب معنا أخونا الكبير يحمينا، من مثلث الخوف الحقيقي وزواياه العربيد وجاذوم وجدتي المأخوذة بسحر حولنا، يلتقينا والدي ووالدتي يهبطان السلم هلعين، عثرا أيضا على أفعيين

متلاغيين قرب سريرهما بفحيح غريب. من غير اتفاق تتوجه أبصارنا إلى جاذوم الفوال، يغط في نومه وقد هفت خرجه تشرشبت أطرافه بعد أن غادرته، يبدو واضحا، آخر الأفاعي التي اصطادها..

يقترب والدي إليه، يوقظه بقدمه، غير أن جاذوم لا يتحرك، يفتح عينا واحدة في البدء، يبدو كما لو انه لا ينتبه لوجودنا، حضورنا لا يفعل شيئا عنده. يظل على اضطجاعه ينظر نحونا يفصح أخيرا عن إن شق شارع الملك فيصل الجديد يقترب، بعد درزن سنين يقتحمنا، وأفاعي الخير هذه رغم شرها رُسل محترمة تنذر عن شر آت، نسمع صيحة متشنجة تصدر من الحجرة يظهر في أثرها اخوي الكبير إحسان عند الباب حاملا قامة والدي ملطخة بدم قاتم، نهرع إليه فنرى.. ذلك العربيد المرقط ممددا بطوله مقتطع الرأس، ما زال جزؤه الآخر يتلوى يتبعثر على الأرض!

ونسمع جاذوم هذه المرة يصيح بأعلى صوته: حي.. حي... الله حي! يروح يزبد يرعد، ينطلق اخوي إليه شاهرا القامة مغضبا:

- يا قواد.. يا محتال..كيف تتمكن الحيات مغادرة الخرج وحدها وهو عندك مربوط!

يجره والدي من ذراعه، ننتظر حتى يهدأ الفوال من سورته، يقاذف في تقلبه وصخبه كسرات خبز يابسة وعظاما وقطع لحم يفلح في إخفائها من قوزي الصباح، لا يطول انتظار والدي، يرمي أغراض الساحر إلى الدرب، يتبعها بالساحر نفسه..

لا نكاد نعود إلى البيت ويغمرنا هدوء متخلف بعد الهيجان حتى نلاحظ فوق رؤوسنا بعد قليل أفاعي العجب.. معلقة من السقف كدوالي العنب!

تواجهنا بوقاحة.. تنظر إلينا من رؤوسها المثلثة بعيون لا أجفان لها..

في أسر الخوف لا يبقى غير الذوبان فيه والتلاشي لنا.. نحن عشاق الحصرم.. أكله كله.. خسران البيت.. أو تجاوز مواجهة.. إلى مجابهة.



▪ **خبر ٣**

المصون يمهل لا يهمل

ينهض محمود العطار مديد القامة خلف الميزان النحاسي الصغير في صدر دكانه المحتشد بالعلب العتيقة، تين مجفف، حبوب، ملبّس، غيره.. يده طويلة معروقة يشير نحو البيوت المهدمة أمامه:

- متى يقوم يكتمل البنيان.. ربك العالم! صغار المحلة يصيرون مهندسين أطباء ولا زالوا يحفرون هناك.. شغل سنة يسوّفون به سنين.. سياسة أو ربح وراء ذلك التسويف.. الفقير وعبده لا يدري..

ويوضح أكثر للحاج عليوي ضيفه الجالس ساكنا صامتا على الصندوق الخشبي الفارغ عند مدخل الدكان:

- حجي شوف مناقب الحكومة.. حقيقة عملها هذا لخير الناس.. لو يتركها الهدامة تشتغل ترتاح تصنع المعجزات..

يلتفت الحاج عليوي جانبا مهملا التسبيح بمسبحته الطويلة ذات الحبات الصفراء الضخمة، يطل من نظارته الطبية باحثا عن شيء يستحق النظر، ثم يتساءل في فحيح رجل مخنوق:

- أي عمل سيد محمود؟!..

محمود العطار يضيق عينيه مستهجنا مستغربا تساؤل الحاج العجيب، يسند وقفته بإمساكه كرة الحديد المدلاة من سقف دكانه بسلسلة مكينة:

- يا حاج.. ألا ترى هذا الشارع الضخم الجديد الذي تشقه الحكومة!

يسعل الحاج عليوي، يكاد يسقط عن الصندوق الخشبي، الصندوق يكاد ينسحق تحت ثقل اهتزازه، نديف سعاله يضيع في ضجيج المكائن والآلات المنبعث من هناك.. يهدأ.. يتنشق أنفاسه عميقا.. يعدل وضع نظارته على عينيه.. ينبري على العطار محتدا:

- أبو شكر أي عمل؟ هدم بيوت الناس تعتبره من الأعمال الضخمة؟!

يرمي محمود العطار نظرة احتقار على رأس الحاج ونظارته ومسبحته وطريقة جلوسه، يضع ساقا على ساق حضرته.. ويحرك العطار محمود في أسف رأسه حركة عارف خبير بتقلبات المصير:

- واي واي.. ألم تسمع بالتقدم .. ألم تسمع بالتطور.. في أي واد تنام؟

الحاج عليوي يواصل التسبيح، يناقش الحال في عقله، يتأمل البيوت المهدمة، يضيف:

- سيد محمود أي تطور لخاطر الله.. من عشاق التطور صاير حضرتك ولا أدري!

يعود محمود العطار إلى جلسته وسط حاجاته المختلفة، يسوّي أكوام الحمص والفاصوليا بيديه، يكشّر، يفسّر لمن لا يجيد كيف أن يقشّر:

- تطور عال العال حاج... النور لا يدخل دكاني كل النهار سابقا هدموا تلك البيوت صارت الشمس تسرح في جعبه.. الأهم صار موقع الدكان استيرتيجي..

- تجي استير؟ من هي استير! متى؟ نوّرنا من نورك..

- استرتيجي بلغة الكُبَرة يقول مهندس إحسان تعني المهم، أساسي، أمام الشارع العريض، عينك تشوف يا حاج قريبا أهمية دكاني تزداد بعد إنجاز العمارة قدامك..

يكبح الحاج عليوي تسبيحه، يتطلع بعينين دهشتين وفم فاغر إلى محمود العطار، جنابه يحلم، لا بل يطير في حلمه، على وجهه تكشيرته الجافة يلعب بما له، بأكوام الحمص والفاصوليا. الحاج يعاتبه يؤنبه:

- سيد محمود.. أبو شكر.. بيوت الناس تتهدم.. أي تطور هذا!

محمود العطار يشكل كوم الحمص هرما بلا طائل، يتداعى كل مرة:

- يا حاج بدل تلك الخرائب يحصل سكانها على ذهب.. أدع يكون لنا.

الحاج ساكت لا يفهم تماما كل ما يسمع، أو لعله يفهم يبلع، يفكر في أقاويل تاجر عطار لا يهمه من الدنيا غير المال وجمعه، حقه، كل يومه هاك هات، التعامل بين الناس بالمال لا بالحمص، الحاج يتأمل البيوت هناك، قبل حين يلعب الأطفال في ساحاتها، يتصايحون، تتقلب اليوم خرائب.. وحشة.. اغتراب يجتاح روحه والمكان.. الحاج يهمس في حزن:

- سيد محمود.. ذهب العالم كله لا يعوض أشياء يفقدها الناس بعد هجران بيوت يولدون يترعرعون فيها..

يخفي الحاج عليوي مسبحته في جيب الصاية يخرج علبة التبغ الشامية يصنع لفافة في هدوء وأناة، نظرته تطوف فوق البيوت المهدمة، يضيف مبحوح الصوت يسري وراء طيف عابر:

- عندنا بيت قديم في صوب الكرخ باعه والدي المرحوم من زمن بعيد.. حتى اليوم أرى نفسي بالحلم نائما في سردابه البارد..

العطار يضحك يحاول إسناد الحمص في مثلث منبسط بعد فشل الهرم:

- يرحم والديك.. الناس يعيشون بالأحلام أو.. بالموني موني.

هذا العطار لا يريد أن يفهم، الحاج عليوي ينوي غلق أبواب الحديث:

- المهم.

محمود العطار يجد في كلمة الحاج جسرا للعبور إلى حديث آخر:

- المهم.. التطور بعض الأحيان يدوس على بعض الأشخاص..

يقاطعه الحاج عليوي عصبيا منزعجا:

- لخاطر الله من أين تعلمت هذه الكلمة.. تطور.. تطور.. راح تفقرنا!

يطلق محمود العطار ضحكته عالية ثابتا في مقعده، لا تهزه الضحكة لا تحركه، ينحني من مكانه إلى الحاج يفشي سرا خطيرا في همسة متآمرة:

- تدري حاج من أين تعلمت هذه الكلمة؟..

يمد ذراعه النحيفة الطويلة نحو عمارة تحت الإنشاء قرب الدكان:

- من ذلك البنّاء هناك.. مهندس إحسان يذكرها أمامي مرة بعد مرة..

لا يكلف الحاج عليوي نفسه مشقة التفات إلى الجانب الآخر.. يردد لحاله مستغربا كأنه يسمع تلك الكلمة أول مرة في حياته:

- تطور!.. تطور!..

يؤكد محمود والابتسامة تختفي من وجهه الحجري:

- حجي تصور فهم هؤلاء المهندسين خريجي الجامعات المعتبرة.. ذاك الولد الواقف هناك منهم.. مهندس إحسان يسمونه.. دجال.. يقول عليّ إخلاء دكاني خلال أيام والمطالبة بتعويض أو محتمل ينهدم على رأسي..

يرفع الحاج رأسه في تثاقل نحو محمود متوجسا خيفة:

- سبحان الله.. ولماذا هذا الفال السيئ من حضرته؟

يعقب العطار في عجلة يطمئن نفسه كذلك الحاج:

- حجي دكاني بناء عصملي قوي لا تهتم لأهل بدع.. الأقدار بيد الله.

يتساءل الحاج عليوي زيادة في حيطة وحذر:

- معلوم محمود لكن لماذا فأله السيئ.. ما عداوة تطور أفندي معك؟

ينفث محمود العطار حسرة حبيسة في صدره.. يرد في ضيق وتبرم:

- يقول المحروس مهندس إحسان المدسوس من أبليس على الأكثر إن آلات حفر الأسس حين تشتغل تهز الأرض والدكان لا يحتمل.. قلت له زلزال ما زعّله فما قيمة آلاتك أفندينا!

يتطلع الحاج عليوي في زوايا الدكان، تعشش فيها عناكب، جدران مرتع فئران، طابوقها مسروق من بابل، يتذكر كلمة محمود العطار التي يرددها بين آونة وأخرى يقول ضاحكا في نية إغاضة السيد محمود:

- إي.. أبو شكر عليك مجاراة التطور.. تجدد بناء الدكان إلى خان..

يغتاظ محمود يكاد يتفوه بكلمة غير محمودة لولا اسمه محمود الذي يمنعه من سفاهة كذلك احترامه للحاج عليوي، رغم مماحكات معه يريد خاطره، يرد في تراخ وفتور:

- حجي.. هذا البناء الفخم لدكاني قاصر برأيك؟!

الحاج عليوي ينوي مداعبة بل إغاظة السيد محمود.. يسأله:

- إي.. والتطور؟..

يحتار العطار في الرد عليه، يوقعه هذا الحاج بمأزق، يدافع عن فلسفته:

- أخلص من البنّاء يطلع الحجّي.. يا ريت حجي حلو مرتب شعره.. شلون يوم أُغُر!

لكن الحاج عليوي يتذكر أيضا المهندس وفأله الغريب عن إمكانية تهدم الدكان، يتبخر مرحه المفاجيء، يحل محله قلق فضاح بتجهم يطغي على الوجه سحابة سوداء، يده في جيب الصاية يبحث عن علبته الشامية عسى لفافة أخرى تطرد من صدره سيرة اهتزاز الأرض وتهدم العالم..

شاب في قمصلة جلدية سوداء، غبار يعلو رأسه المستدير، ينبق قربهما يخوزق العطار بنظرة خارقة، ومحمود يتحفز لمعركة ديوك ضارية معه يفتتح الحلبة في تهكم صريح:

- ابن الحلال بذكره.. حضرة المدس دس إحسان!

يبتسم الشاب المهندس ابن الحلال ودودا:

- عم محمود.. المكائن تهز تمص.. ستشتغل.. وضحّت لك مرات.

لا يدعه محمود العطار يتم كلامه، دملة كبيرة وشك إنفجار يصيح:

- رح الله لا ينجحكم.. ماصون تريدون قلب العالم ودكاني رأس القائمة؟!

يتلقى المهندس ثورة العطار في رحابة صدر.. يضحك يداعبه:

- سيد محمود مررتُ بتجربتك، أفهم معاناتك، بعد شق شارع المرحوم الملك فيصل ننتقل من بيت لآخر أتصوره في صغري تسكنه الجن.. منه أتخرج مهندسا.. اتضح كله خير.. عسى كل الخير لأولادك بدكان جديد.

- مكائن تمص مكائد تبلع الأولاد تراهم هناك يبحثون عن شغل مودلي!

- لا عليّ، كتبت إلى الوزارة بالموضوع، الباقي دمك على بيت عمك.

تكتمل ثورة محمود العطار، في سورة غضب يصيح:

- لا يا ظالم النفس.. لا يا فتاح فال الشؤم والبوم!

يتدخل الحاج عليوي في الخصام لتهدئة الحال، يقترح على السيد محمود ترك الدكان عند اشتغال المكائن، بعد ذلك يرون المرغوب والمطلوب.

لكن محمود العطار يصر على البقاء في قلعته معلنا في ثورة حسينية:

- الأقدار في يد الله.. عملهم لا يقدم لا يؤخر في أجلي.

المهندس يفحص بنظره جدران الدكان، سقفه، جذوع النخل المسودة الكثيرة الساندة، عش العنكبوت يدعم زواياه لا بأس، يقول يائسا:

- شرطة ما تمكنت إخراجك من الدكان.. ما جدوى محاولتي معك!

يحرك رأسه في أسف ينصرف. النظرة الذئبوية الحاقدة لما تزل في عيني محمود العطار، عصبيا يخرب مثلث الحمص في التنكة. الصمت يقطعه الحاج عليوي بسعلة، نحنحة، لا يحتمل خوفا متناميا، مواريا رغبته في مغادرة المكان يرجو السيد محمود أبا شكر ملاطفا:

- أبو شكشك.. خلنا نروح إلى قهوة عباس الأحمر نشرب حامض.

غير أن محمود العطار يفوت عليه فرصة هرب:

- كل معدتي صارت حامض.. حاج لا تخف.. المكائن اشتغلت أمس أيضا.. لا شيء من أوهام ذاك المهندس المقروص في جعبه عاشق التخويف والتخريف صار.. مكار هو.. يريدون كل المكان لهم..

يتم السيد محمود مقولته التأريخية تلك يدوّي في الجو انفجار عنيف يجفل له محمود نفسه، كذلك الحاج عليوي، يتململ مكانه، يده بحركة لا شعورية تمسك عباءته الجوخ استعدادا لهرب إلى الواق واق، يضبط نفسه آخر لحظة يلتفت نحو الماكنة، تطرق الأرض بشدة كما لو هي وحدها تقرر، تحفر

بئرا أو نفقا إلى الآخرة أو القطب.. العالم هو الرب، يحدق في الآلة طويلا.. إله جديد يدوس كبرياء الأرض في تجبر ولا مبالاة..

الحاج لا يمكنه منع شفتيه من بسملة وحوقلة لا تنتهي، الأرض تهتز تحت قدميه فعلا مع كل ضربة من تلك الضربات. عليه أن يقترح بجد على محمود العطار مغادرة هذا المكان الذي لا يهدأ منذ زمن سقوط بابل لكن إلى أين وبابل تصير في كل مكان، يلتفت إلى محمود.. مهمود.. هو الآخر يحدق في ذلك النصب الحديدي الشامخ المتعالي والتراب ينهال على رأسه كلما تتفجر فرقعة من الفرقعات في الجو من إله الحديد الجبار ذاك، الغبار يملأ الدكان.. يصير شماسي وقبعات لهما..

يهمس الحاج عليوي في عبه: القضية ثخينة.. مسيرها طينة! يلملم عباءته، يضع مسبحته في جيب الصاية، ينهض لا ينظر إلى محمود العطار، في تردد يقول:

– أبو شكر.. فات الوقت علي.. في أمان الله...

يشرع في وضع عباءته الجوخ على كتفيه متمهلا، يسرع في ارتدائها، ضوضاء غريبة تصدر من داخل الدكان.. يقول:

– أودعناك..

يمضي مسرعا.. لا يبتعد عن الدكان يسمع خلفه ضجيج تقوّض وانهيار.. تساقط علب معدنية وصراخ.. استغاثة.. يتمتم: بسم الله الرحمن الرحيم! يلتفت.. محمود العطار يكاد يختنق بسحب غبار ثائرة حوله مع انهيار الجدران والسقف على أرضية الدكان!..

الحاج يتطلع إلى صاحبه محمود في حيرة وارتباك..

لا يتمكن رغم اتزانه ووقاره منع نفسه من إطلاق ضحكة كبيرة متذكرا تلك الكلمة التي يرددها السيد محمود في أكثر من مناسبة، يضحك عاليا:

- ها.. ها... هاه.. تطور.. ها هاه.. عشاق التطور يأكلوها أخيرا.. ها!

يواصل إطلاق ضحكته ملعلعة.. والعطار وسط دكانه غارق في الغبار والأنقاض.. غير فاهم موقعه بالضبط من كل هذا التهوّر الذي يجري!.



▪ خبر٤

بيت الجن

بعد اختراق شارع الملك فيصل بيتهم القديم وانتقالهم إلى الجديد تشغله حكاية البيت المجاور كله، سكونه يؤكد لا يسكنه بشر لا يدري منذ متى، أخته تؤكد العكس، ترى رجلا دائما يخطر على ساحته في ثياب بيضاء..

يقضي الظهيرة خلف سياج السطح، يرقب في تحد ما قد يحدث هناك في الأسفل، لعله يلمح ذلك الرجل، لكن لا شيء يحدث، لا أحد يخطر، أشعة الشمس فقط تنهمر إلى ساحته تضيء جدرانه، أبواب غرفه. الغرف ذاتها تغرق في عتمة دائمة كل الوقت. مدخل الغرفة المجاورة للسلم فقط يضاء برشح أشعة الشمس حين تميل إلى المغيب، تظهر آنذاك تلك المائدة الطويلة العريضة.. لا أحد يعرف الغرض منها هناك ولا مآكلها بالضبط..

البيت أجمعه يحيره لا تلك المائدة وحدها، لا يرى من مكمنه على السطح غير الفراغ الكبير يخيم في جو البيت هناك،

إضافة طبعا إلى سطحهم الناصي، والسلم، ومدخل الغرفة، والمائدة التي تظهر تختفي حسب الوقت..

يرمي الكيس إلى أعلى تشب وردة نحوه، تطاله أحيانا بمخالبها الناعمة، تتقاذفه، تطارده، يصفق الكيس بيده نحوها فجأة، تجفل وردة تنهزم. تعود إليه مترددة خائفة، تهاجمه، يخشخش ورق الكيس..

ينهره والده قاطعا كلامه مع عمه:

– إحسان.. متى تترك لعب الأطفال هذا.. أنظر إلى وجهك في المرآة.

لا يرد كعادته مؤخرا، يعرف ما يعني والده بـــ " انظر إلى وجهك في المرآة.." لكنه لا يعرف ماذا عليه أن يفعل للزغب الأسود النابت حديثا تحت أنفه. يغسل وجهه مرات في اليوم لعله يلمع، لعلّ ذلك السواد ينزاح، لكنه أبدا باق. يتجنب الخروج إلى الدرب، لا يريد سماع صيحة بعضهم: أبا الشوارب!.. ماذا تحارب؟..

يقوم إلى المرآة، وردة تتبعه، يتفحص وجهه، يفكر في استخدام شفرة والده لحلاقة الزغب، لكنه يخشى تصور أولاد المحلة شيئا معيبا فيه.. ليتركه وشأنه.. يمسك وردة ينظر إلى عينيها طويلا.. اخجلي مني.. لا تخجل.. لا تغمض..

يعود إلى الغرفة يبحث عن أخته، تحمل أواني الشاي، والده وعمه يتحدثان يختلفان لا يدري على ماذا، على ما يدور في البيت، في المدينة، أو في العالم كله، غالبا تختلط تتداخل تلك الكلمات في حديثهم، يقول عمه المعلم الفاهم: ما يدور هنا يدور هناك، لا فرق. ينتظر إحسان حتى تفرغ أخته من تقديم الشاي، يسحبها خفية من ياقتها إلى الزاوية البعيدة، يجلسها خلف الأريكة يعتمد هو على حافتها بيديه، مقلدا أحد ممثلي أدوار الشر في السينما يغير صوته يجعله مرعبا خفيضا:

- انتظريني تحت الشرفة.. ألقي وردة من هناك إليك.. عليك الإمساك بها.. لو لا تموت تجيئين إليّ بها حالا.. ألقيها ست مرات.. تفلت وردة منكِ مرة ألقيك يا أنس بدلا عنها من الشرفة.. مفهوم؟

تتطلع أنس إلى والده وعمه لائذة، هما منشغلان عنهما، يشعل نارا في عينيه يرعبها، تحوص أنس مكانها فأرة. تقول خائفة:

- الله يعاقب على إيذاء الرمي من السطح بنار جهنم يوم القيامة!

يرد هائجا كاتما غضبه:

- لا عليكِ، شيخ التحدي يدخل جهنم لا أنت، أنت تمسكين فقط وردة تحملينها إلي.. لا ذنب عليك في هذا.. لا تشريب.. لا تثريب..

تسأله أنس متضرعة:

- مسكينة.. لماذا تعمل بها هذا إحسان؟

يناقل نظرته الحمراء منها إلى والده يقرّعها:

- افهمي.. خلّيكي من عشاق التحدي.. مثل الإنكليز في فيلمهم سادة البحار.. هذه تجربة علمية.. لأعرف هل للقط سبع أرواح حقا.. أو يكذبون علينا كما بكل شيء!

يرتفع صوت والده أثناء الكلام مع العم يكاد يصير صياحا:

- الدنيا مأدبة والشاطر فيها يتصدرها يحصل منها على ما يريد..

عمه يرد متسامحا:

- إذا هي مأدبة الأجدى عدم التنازع فيها، الموجود يوزع على الكل في عدل، لا فرق بين متصدر وغيره، للجميع في النهاية معد متساوية تقريبا.. مَن يحمّل حاله أكثر يخسر.. عشاق المآدب لا أتكلم عنهم!

فجأة يُفسح أمام إحسان مشهد المائدة الطويلة العريضة المنتصبة في غرفة البيت المجاور، تعتليها أطعمة بألوان وأشكال لا يتصورها أحد، هو شديد الحيرة، لا يدري هل ما يرى من تلك الأنواع الغريبة من الأطعمة على تلك المائدة من واقع، حقيقة، عصابة مثلا تجتمع ليلا في وقت متأخر، جن لا

يُرَون لهم رغاب أوصاب معينة هناك، أو أن في الموضوع سر آخر يعلو على مداركه ورؤاه؟!..

يقرر المضي إلى السطح حاملا مصيادته، إلقاء نظرة ضروري عبر السياج إلى بيت الجار العجيب، لعله يفرز بين المصيب مما يطيب.

الوقت ظهرا لا يمكن تبين شيء، أشعة الشمس ساطعة لاهبة على السطح تعشي البصر، الفراغ والصمت مهيمنان في غرفة البيت اللغز المجاورة للسلم، بظلامها الأغبش لا يلوح من المائدة غير مثلث وقائمتين..

ينتظر حتى تميل الشمس، من حين لآخر يهرع إلى الحنفية يأخذ كف ماء يبلل رأسه، يتلهى بأكل اللفت المخلل في الزير تحت اليد.. ويا للغرابة.. يرشح النور شاحبا واهنا من باب الغرفة هناك، يرى المائدة، كنزا من كنوز علي بابا السحرية، أغرب الألوان أشهى الأطعمة.. لمن المائدة مهيأة اليوم، آل كوبوني، فرسان المائدة المستديرة، أو هم أشد غموضا من أولئك، متى يحضر الضيوف، أو هي مُعدة هكذا منذ لا يدري متى لا ينتبه لها سوى منذ أيام. يد غامضة تمتد من حين لحين تغمرها كل ذلك السحر الشهي.. لا يعلم أي شيء على وجه اليقين غير إن تلك المائدة قائمة، حقيقة واقعة، مَن يفعل ذلك

متى لمن لا جواب عنده عليه.. لا عند أنس لا عند وردة ولا آخر غيرهما..

ينتظر أياما خلف السياج يحاصر البيت بنظراته، لا أحد يتقدم إلى المأدبة، تعثر أنس فيها على تأكيد لوجود الرجل ذي الثياب البيضاء تقول مَن غيره يعد كل تلك المأدبة العجيبة؟.. أما لمن؟ لا تجد هي أيضا لذلك جوابا.

يتناسى حيرته مِن مَن يعدها، لمن تُعد، لماذا لا يحضرها أحد، تتناوله حيرة أخرى من غرابة الألوان فوق المائدة، أشكالها العجيبة، تذكره بأجواء يحلم بها لجزر نائية في محيطات، بصور غريبة في تقاويم ومجلات، يهمه أن يعرف كنه تلك الأشكال والأطعمة، مَن يطبخها، مِن أي سوق، تتحول المائدة عنده إلى لغز أسطوري يدعو لفضه، ماذا تحفل به حقا مائدة الدنيا تلك؟ ما حقيقة غرائبها المشتهاة وكنه المذاق؟ يقلّب اللغز طويلا مع أنس، يختلفان في كل ما يذهبان إليه، يتفقان على إن ما يُرى لم تره عين من قبل، لا يحلم به أحد أبدا. أنس تؤكد: هذا الرجل انكليزي على الأكثر، تقصد الرجل ذا الثياب البيضاء الذي ما أن يلتفت إحسان أو يذهب إلى مكان بعيد أو قريب من السياج حتى تصيح ذاك هو هناك يعبر الساحة، هكذا لا يحظى برؤيته مرة ويستريح. أنس تشرح:

– والذي هناك أكل انكليز على الأكثر!

يضايقه كلامها، يضايقه إنها تعرف أكثر منه، يضربها على رأسها لتعترف أكثر:

- يكلمكِ هو منه تعرفين هو انكليزي وذاك أكل إنكليز لا بزازين!

تصيح بصوتها الخافت دائما:

- ذاك هو!

يلتفت سريعا إلى جوف البيت يفحص الساحة جيدا، أبواب الغرف المغلقة، ما يظهر من السلم، السطح، لا شيء آخر، لا يراه. يسألها:

- ماذا يلبس.. بيجاما شفافة؟!

- نفس ملابسه البيضاء.

- لا يبدلها؟.. لا تتسخ؟!

- يبدلها في مكان آخر حتما.

- تعرفين كل شيء عنه.. لك صلة معه وأنا لا أدري؟!

- يرفع يده يسلم عليّ أحيانا حين يمر بساحة البيت وأنت تراه لكن تنكر.

- لا.. لا أراه..

يسكتان.. يقول:

- عندما أكبر اذهب إلى بلاد الإنكليز.

تسأله أنس:

- وتأكل لحم الخنزير؟

- يبدو طيبا في المجلة.

- والحرام؟

يرفع كتفيه، يتفحص البيت لعلّ رجل الثياب البيضاء يظهر. تستفزه:

- ذاك هناك أكل إنكليز.. إنزل كُل منه مع عشاق التحدي جماعتك!

تشير بيدها الرفيعة إلى المأدبة المهجورة، رغم شبعه يتمنى الوصول إلى ساحة البيت، إلى مثلث المائدة يختطف شيئا يأتي به يعرف ما هو..

النزول إلى السطح غير صعب.. لكن.. بئر السلم.. و..

يجري إلى غرفة سطحهم، يفتح بابها، يغلقه خلفه. يعتاد الظلام يتلمس طريقه بين الفرش والصناديق وأكوام البصل، يقلب البرميل من غير ضجيج، لا تتحرك وردة مكانها إلاّ قليلا، تموء، تتلفت حولها، يرفعها، تخربش يده أول مرة.. عروس قريبا، يخرج إلى النور معها. أنس تنهره:

- ألا تخاف الله تجوعها ثلاثة أيام!

يصعد السرير، يعتلي السياج في حذر، يترك وردة تسقط على السطح الآخر، يدور ذنبها تتلقى الأرضية في خفة. تتوقف هناك تنظر حولها. ينتظر.. و.. ينتظر.. لا تتوجه إلى بئر السلم ذاك، لا يوجد سمك في تلك المأدبة.. تقفز القطة الجبانة على حافة التنور، تتطلع إلى داخله. ثم تقفز نحو المدخنة، قبل أن يحاول إمساكها تدلف إلى سطحهم، تهرب إلى الطابق الأسفل، ينزلق هو يركض وراءها..

يجدها في مطبخهم تشمشم البلاط! ماذا، وأكل الأجانب ذاك.. لا يعجبها! أو أنها لا تشم رائحة المأدبة هناك بسبب مجيء الهواء لأعلى، أو لأنها مأدبة مسحورة لجن أو ناس مسحورين يمنعون التطفل عليهم يرشون مادة مضادة هناك لروائح الطعام المغرية؟ يخرف أو يقترب إلى الحقيقة؟ لا يفكر لا يرى غير ما يوصل إليها، لا يشعر حوله من أهله غير أنس، شريكته مع وردة بمغامرته في أعالي السطوح قبل البحار.

يكرر العملية الجهنمية "بزون أكس" معها مرتين أخريين، لا تنتبه وردة لتلك المأدبة الهائلة على ذلك القاع، لا تشغل نفسها حتى بشمشة هواء البيت الآخر، تشعر غربة هناك، تعود كل مرة بعد الإنزال الجوي من هناك إلى سطحهم منه إلى طابقهم الأسفل، فإلى مكانها المعتاد في المطبخ!

أخيرا تؤكد أنس استنتاجه:

– إحسان.. هذا البيت مسكون!

يصيح بها أن تسكت. تنسحب من السياج. وحده في مواجهة اللغز..

ماذا يعمل وماذا يأكل وماذا يتكلم عشاق المآدب أولئك هناك؟!

يجب أن يعرف كل شيء.. أو لا موجب للذهاب إلى المدرسة أبدا..

ماذا لو يهبط نفسه إلى جوف البيت الآخر؟ يخطف من مثلث تلك المائدة شيئا ويأتي به سريعا إلى أنس، لتتأكد من شجاعته في الأقل؟ التسلل إلى السطح ليس مشكلة، نعم، نزل إليه مرات إثر سقوط كرته على ذلك السطح.. لكن المرة هذه.. الرجل أبيض الملابس.. بئر السلم.. و..

أيام تنقضي لا تتحرك ذرة غبار داخل البيت، لا يرى لا يفكر إلاّ فيه، يصير الدنيا كلها له، منذ متى تلك المأدبة هناك.. إلى متى تبقى في مكانها على المائدة.. لا يدري حتى متى انتبه لها.. لماذا.. ولا كيف ينهي مشكل وجودها قربه.. وهو لا يذوق لا يفوق منها.. لا يدري..

يتشبث بالمدخنة، يترك بدنه يتدلى، يهبط على التنور، في البداية هي لعبة مع الخوف والمجهول، يقيس شجاعته بخطوه،

يرى ذاته أوضح، كم دقيقة يمكنه البقاء وحيدا في تلك المجاهل، كم خطوة يقطع حتى بئر السلم؟ في يوم وآخر تزداد خطوة، نصف خطوة، يلمس أخيرا طابوقة السلم..

كل مرة عودته من سطح لسطح جريا هزيمة، تتكرر المهمة اليوم التالي.. لا يظهر الرجل ذو الثياب البيضاء.. لا يتقدم أحد إلى مائدة العجب.. بينهما قفزة لا غير.. إلى حضن الخوف هناك!

البرد المتوقع من ماء النهر يتلاشى حال يرتمي فيه، تل الروث لصق حائط بيت خالته يتشاطر هو وأولاد المحلة في القفز عليه من سطحهم، أحدهم يكسر ساقه.. لا يكفوا عن القفز حتى يُزال التل..

هل تدفعه أنس أو غيرها، إلى بئر السلم؟ أو أنه يدوخ يسقط فيه أخيرا، تمتصه أفكاره! لا يقع على وجهه، درجاته تمحى أمام ناظريه، يصير بساطا ينسحب تحته إلى ما لانهاية، شبه دولاب يدور بسرعة جنونية تحت قدميه، لا يذهب إلى المأدبة، هي متجهة إليه، ذلك يبدو صريحا مرة، يصير يرى بأذنيه، يجري، يجري، يجري، بقدميه، بيديه، دهليز طويل يمتد أمامه، بئر السلم يتحول متاهة لا منفذ لها، فجأة يجد نفسه في ساحة الأعماق، على القاع هناك لا يرى الرجل ذا الثياب البيضاء..

أمامه الغرفة المجاورة للسلم، يعرفها طويلا من سطح بيتهم، ها هي أخيرا قربه، في نورها الأغبش العكر يظهر مثلث زاوية المائدة المأدبة.. مغريا!

كشهاب مارق في فضاء حارق يعبر إحسان هواء الساحة الساخن متوجها نحوها، أبواب ضيقة طويلة موصدة شاهقة الارتفاع قربه.. يده ممدودة.. النور سميك قاتم.. يصبح رمادا.. يخوض فيه مختنقا..

يقترب إلى المائدة أخيرا، يصلها، يطالها، يرتمي عليها، كلتا ذراعيه مفتوحتان، يغرف ما يقع تحت نظره، يا للألوان المبهرة الخلابة، لكنه لا يمسك غير.. فراغ! تدوي صرخة عميقة من مكان ما في نور الغرفة الأسخم، لا يعرف مصدرها، هل هو مطلقها، يخيل له، للصمت صوت أزيزه يقرض أذنيه، على المائدة يخبط ذراعيه حركات متشنجة كيفما اتفق.. لا شيء.. لا شيء.. لا يلمس غير برد المشمع الملون المزركش تحتهما.. عجبا.. أين تختفي المأدبة؟! أين تغور الأشياء حين تقرب منها اليدان! أين يهرب الحلم حين تتفتح العينان! أية خدعة حوله وهو لا يدري!

ينقذف في لحظة عائدا إلى مكمنه الأول مثلما جاء، عبر دهليز السلم، على السطح يهاجمه نور أبلق، بقايا الصرخة تسمم

الهواء والأرض بالخوف.. قردا يقفز إلى التنور، منه إلى المدخنة، إلى سطحهم، يحتويه بعض أمان..

ماذا يحدث يا إحسان أفندي؟!

أكان هو على ذلك القاع حقا؟

والمأدبة!.. في النهاية عاشق التحدي يرى إنه أمام فراغ ؟!

يرفع رأسه يتطلع عبر السياج.. تلك هي ما زالت معدّة هناك، إنما لإغراء شخص آخر غيره، حافلة بأشهى الأطعمة، أعجب الأنواع، أغرب الألوان، تشحب قليلا تصير صورة، رسما على رقعة! أو لعلها صورة فعلا وما زال يتخيل، رسم على قطعة مشمع زخرفه فنان ماهر ماكر بالتأكيد، هل يُموَّه واقع بخيال، يتداخلان، يزول الفرق بينهما معه الحقيقة؟ والأيام المهدرة في الانتظار تحت الشمس القائظة نتيجة خدعة لا أكثر، أو أن تلك المأدبة لما تزل حقيقة، عصية على محاولة أولى، غامضة مغرية لبذل المزيد من المحاولات..

بنزوله إلى جـــب البيـــت المســـحور يعبـــر ســـبعة بحـــور
يطـــوف دنيـــا.. يشـــيب لهـــا رأس أشـــطر النســـور
يصير أعلـــى مـــن عشـــاق المـــآدب فـــي كـــل العصـــور
ماذا يحـــدث.. كيـــف تختفـــي المأدبـــة فـــي لمحـــةٍ ثَبـــور

يرى يديه غريبتين، للفراغ لون، رائحة، لاصقة بهما.

ما سر تلك المأدبة حقا؟!.. لا يتعب من السؤال.

بعد رحلة الخطر الطويلة يبيض الزغب الأسود تحت أنفه، يشيب.

يتلمسه.. يستغرب خشونته!

ويتسع صدره طاردا بقية خوف بإحساس مفرح طاغ.. بلا حدود!.



▪ خبـر ٥

بأمر السيد

يُنقل المهندس السيد إحسان حسن من مركز عمله في دائرة...

كانون الأول، أو كانون ثان، الجو بارد خارج الفصل، المطر ينهمر رذاذا منذ أول حصة، والهدوء في ساحة المدرسة الترابية الخالية يزيد الجو برودة وقتامة. يلتفت المعلم عبيد السمين الأسمر من أمام السبورة يتذكر شيئا يسأل التلاميذ:

– أين غضبان؟!

غضبان شيخ ضاري غائب منذ سبعة أيام. لا أحد يعلم لماذا يغيب غضبان كل هذه المدة. التلاميذ صامتون. المعلم عبيد وشك مواصلة الكتابة على السبورة، ريح باردة رطبة تحمل رائحة شجرة السدر تهب من ساحة المدرسة الترابية. المعلم عبيد ينظر في وجوه التلاميذ الصامتة الباهتة. يصيح المعلم عبيد:

– إحسان حسن..

يتردد تلميذ في نهاية الفصل.. ينهض خائفا يرد:

- نعم!

صوت المعلم عبيد السمين الأسمر خشن مرعب.. يسأله:

- لا تدري أين غضبان؟.. هو يلعب أمام بيتكم دائما.. أنتم جيران.

الرذاذ لما يزل ينهمر في ساحة المدرسة الترابية، البرد يهجم إلى داخل الفصل، يرتجف إحسان يرد واهن الصوت:

- يقول غضبان لن يأتي إلى المدرسة أبدا.. أبوه الشيخ لا يصرف على بيت العشيرة بالولاية.. بعد زواجه على أمه.

عينا المعلم تحدقان فيه، رؤوس التلاميذ نحوه.. يضيف إحسان بطيئا:

- يقول غضبان.. الشغل أحسن من الذهاب إلى المدرسة.

الصمت مهيمن في الفصل، وشوشة الرذاذ تُسمع من ساحة المدرسة الترابية، الجميع يواصلون التحديق فيه، يتابع:

- يقول غضبان.. يشتغل في الفحامة أحسن من زيزي ميزي المدرسة.

تلميذ ذو أنف كبير يجرؤ يضحك.. مخشوشن الصوت يقول:

- وجهه نراه قريبا أسود كالعبد ما دام يشتغل فحاما!

لا تضحك بقية التلاميذ.. يستأنف المعلم عبيد السمين الأسمر:

- تهاجر الطيور جماعات جماعات، يطير الجراد أسرابا أسرابا، والإنسان عاشق الاستقرار يولي الأدبار أحيانا لأهله والديار...

ويُنذر بالفصل في حالة...

حرب السويس، مظاهرات طلابية صاخبة طالعة من متوسطة البنين، المدينة محتشدة على أرصفة الشوارع، إحسان حسن ليس غير طالب يركض في المؤخرة، يخاف الالتحام في المظاهرة، لا يتمكن الانفصال عنها، يقرر المسير في مؤخرتها.. صافرات.. شرطة في أيديهم هراوات تتقيأهم سيارات حمل إلى ساحة المدينة الرئيسة.. يختلط كل شيء..

يقتادوه إلى مركز الشرطة، يبيت ليلة في الموقف مع طلاب آخرين، مع شباب كالحي الوجوه..

وغضبان ابن الشيخ هناك، في مثلث زاوية غرفة التوقيف، جالس بينهم، كثيرون يستمعون إليه، بالفعل.. غضبان أسخم الوجه من أثر الفحم، تماما كما قال يوما ذلك التلميذ الضاحك ذو الأنف الكبير والصوت المخشوشن..

يقترب إحسان إليه بعد انفضاض الحشد يقول له:

- لا تهتم غضبان.. يمكنني أن أساعدك كثيرا.

يسأله غضبان:

- كيف يمكنك؟!

رائحة العرق الرجولي في غرفة التوقيف تصيب إحسان بإغماء.. يرد:

- أطلب من والدي أن يكفلنا نحن الاثنين.

غضبان يشير بيده نحو الآخرين المزدحمين في غرفة التوقيف:

- وهؤلاء.. مَن يكفلهم!

- عقل هادئ ينجينا يا غضبان لا قلب طاولة حوار واستقرار على أهل.

يعقب غضبان:

- قل ذلك لمثيري المشاكل.. لشيوخ جشع.. نحن طلاب حق مساعدتك لنا في انضمامك إلينا.

- أبوك شيخ، الأهل ظهر، التآزر حل، عشق الغضب يا غضبان مُهلك.

- اشتر بعقلك حلاوة.. الكل يريدها لنفسه.. الصراع عليها مستمر.

ويخرج إحسان حسن بكفالة في اليوم التالي..

و.. يصير مهندسا بعد سنوات...

وذلك لسوء استخدامه مركزه بفرض رأيه كرئيس لجنة اختبار سواق الحفارات...

الجو حار في تموز، الشمس حاقدة في أعالي السماء، أعضاء لجنة الاختبار يحتمون من الأشعة الحامية داخل السيارة اللاندروفر.. الرجال يروحون يجيئون، الوجوه طين، يتلامعون نصال خناجر منزوعة من أغمدتها. مكائن الحفر تزمجر وحوشا ضارية عاملة في افتراس الأرض. نقاش داخل السيارة بين أعضاء لجنة الاختبار.. مهندس يقول يجب أن ينجح فلان، الخبير الروسي يقول.. جورت فازمى خفاتيت روغاتسا.. ومهندس إحسان يقول.. بلا روغاتسا بلا مماحكات.. لا وساطات.. أنظروا إلى الحفارة.. ينزل من الحفارة رجل أسمر كالآخرين.. غاضب كالآخرين.. ينزف وجهه عرقا غزيرا.. يمسح جبهته بكمه يقف في الشمس خارج السيارة ينتظر أسئلة لجنة الاختبار..

المهندس إحسان يسأله:

– كم عدد نقاط التشحيم.. أين هي..

أسئلة أجوبة. قبل أن يذهب الرجل يخرج من جيبه مظروفا طويلا يناوله إلى مهندس إحسان، يفض إحسان المظروف، يقرأ الرسالة، يفتح الباب يهبط من السيارة، يقف في وهج الشمس الحامي أمام حشد الرجال الكبير متلامعي الوجوه غاضبي النظرات.. يصيح مرتفع الصوت:

- يا جماعة.. كل توسط لرفع أجركم أو لإنجاحكم لا ينفع.. كلٌ حسب كفاءته.. يكفى وساطات!

يهمهم الرجال فيما بينهم، لا يصدقه أحد، الرجل الآخر الذي يُختبر بعد حين يقدم له مظروفا آخر.. يمزقه المهندس إحسان يصيح بقوة:

- الممتحن التالي.. غضبان ضاري..

صوت مهموم خشن من خارج مثلث لجنة الاختبار..

من ضوء الشمس وعرق الرجال:

- نعم..

- إصعد إلى الحفارة..

بعد حين ينزل غضبان منها، أمام رئيس لجنة الاختبار المهندس إحسان حسن.. رجل طويل نحيف، الألم في عينيه فظيع، رأسه كبيرة، خلف وجهه المجهد المتغضن المعروق وجه آخر.. يتمعن مهندس إحسان فيه.. يسأله عاقدا حاجبيه:

- اسمك.. غضبان ضاري؟!

يقول غضبان:

- نعم.. غضبان ضاري..

يسأله إحسان:

- ألا تعرفني!

غضبان لا يتمكن النظر طويلا في عيني رئيس لجنة الاختبار، ربما بسبب ضوء الشمس الشديد، ربما بسبب سيول العرق المنهمرة من جبهته إلى عينيه.. يرد خافت النبرة مترددا:

- لا والله.. العتب على النظر!

بلا خجل تدمع عينا مهندس إحسان بعد قليل، يضع نظارته السوداء يغطيهما عن الحشد، يلتفت بعيدا عنه ينظر نحو الحقول والسماء والأشجار، تحركها الريح كيفما تشاء..

يطرحون على غضبان أسئلة كثيرة، يرتبك غضبان أمام لجنة الاختبار، خاصة أمام رئيس لجنة الاختبار مهندس إحسان، لا يعرف الجواب على بعضها. ويذهب غضبان..

ويختلف أعضاء لجنة الاختبار على نتيجته، أخيرا يُعتبر غضبان ناجحا بإصرار من رئيس اللجنة.. المهندس إحسان حسن...

وهذا هو أمر السيد المدير العام بنقله يصدر إلى موقع الفيضان... بعد عدة سنوات أخرى!

فأين أنت يا أستاذ عبيد..

نعيد النظر بدروسنا كلها.. من الألف إلى الياء!



▪ **خبر ٦**

نزال مبكر

تزج أنفك مع مجانين، تكون من عشاق العراك، أو أنت كلب ابن كلب، طقوع، جبان، متنصل من أصلك فصلك.. تساعد واحدا من أقاربك أو معارفك القدامى أنت حنقباز، تسوء استخدام مركزك. تتأخر عن الدوام ساعة ساعتين أنت متسيب.. لا يعوّل كثيرا عليك.

حكم مزججة مؤطرة متربة معلقة على جدران مدرستنا، عمي يلقنني وهو يدفعني إلى ملاكمة في أول جولة بل معركة لي:

– الضرب بالقبضتين فن يسمو بالروح إذا لا يُستغل لحصول على مغنم، ووحشية إذا تستخدمه لإظهار تفوق لا غير على أبناء المحلة وغيرهم..

ألملم قبضتي متحفزا منحنيا، في الفانيلة والشورت الأسود، مستعدا لخوض الجولة، يضيف عمي:

– هيا إحسان.. أمامك معلمك عبيد المرعب.. الآن صديق.. تلاكم معه.

معلمنا عبيد المرعب الأسمر السمين صديق عمي، مرعب بحق، يدخل الصف يصير لخط الطباشير على السبورة أزيز طيارة، لسقوط إبرة رنين صنج مباراة ملاكمة، أبقى أتقافز أمامه، يكشف هو بتكشيرة مشهورة له، يعرف الجميع ما يخفي وراءها، عن مشجب أسنانه كلها. يضم قبضته أمام وجهه ينحني عليّ فعل باترسون في الصور، يقرفص مقعيا رأسه الضخم في مستوى رأسي، ينظر إلى عمي مستخفا، يرعد بي صاخبا:

- لاكم يا إحسان نحن بطول واحد الآن.. صوِّب ما تشاء من ضربات.

أبناء صفنا يقفون أعلى حافة الجفرة غير مصدقين، هذا النوع من العراك لا يرونه إلاّ في السينما، تقليد حركات الأبطال ذوي القبعات والمسدسات معيب عندنا، ندري نصبات كذب في كذب، صفعة واحدة من يد احدنا لآخر تشعل النار في عينيه، هم يتقاتلون ساعة كاملة لا كسر لا رض، مبالغون هؤلاء الفرنجة، نعرف ذلك لا يحيرنا أيما شيء في أفلامهم غير تلك النيران الملتهبة حول الأبطال والقراصنة، أسأل عمي عنها يرد مشغولا بتوجيه لكماته إلى الكيس الشاخص أمامه:

- تباع في الصيدلية.. نار اصطناعية لا تحرق لا تؤذي.

بعد أيام يجمع أبناء محلتنا مبلغا كافيا لشراء كرة قدم، نذهب إلى صيدلية "بابل" دشاديشنا تهفهف، يستنكر ذو الروب الأبيض من نظارته اللامعة دخولنا عليه مكانه البارد.. عصبة صعايدة منتقمة.. نقول:

- نريد نارا لا تحرق.. كالتي تلتهب في فيلم سادة البحار.

لا نفهم ما الذي يضحك السفيه، يقول لنا عائدا إلى الجد:

- لم نستوردها بعد مع الأسف.. عند الفرنجة هراوات أيضا لا توجع تريدون منها.. ليست غالية؟

عمي يقول سفاسف يصدرون إلينا وهذا يتكلم عن هراوات أيضا لا توجع، تقدم كبير، بعد حين نعرف، اللئيم الكيمياوي يسخر منا، نطلع غاضبين منه، من أنفسنا، ننوي تخويف أبناء المحلات الأخرى لحماية أنفسنا نُتهم بتخريف، ما هذا، من سنين وزعامة لوائنا العزيز بيد أبناء الجامعين، يجيدون العراك بالمصيادات والقذائف النارية، ينافسهم في الجانب المقابل من الشط أبناء كريطعة، لا يضاهيهم أحد باستعمال (المعاجيل) يفرونها بأيديهم قل المنجنيق حين يستفيق، تسمع لها أزيزا يطيش الصواب، يطلقون أحجارها تعبر الشط أسرع من الرصاص حتى تسقط في ساحات بيوت الجامعين، تنشب المعارك الحقيقية الطاحنة بين مثلثهم هناك والمثلث المقابل لأقاربي على الشط، ويلاه، كما يقول جدي، للداني والقاصي

منها، تستمر ثلاثة أيام، أربعة، أسبوعا كاملا، لا تفض إلاّ باشتباك الكبار وتدخل الشرطة أو باتفاقهم في أحسن حال على هدنة معرضة لخرق كل لحظة..

لحسن حظي محلتنا بعيدة، في منجى من تلك المعارك، تمارس حياد توتي الايجابي يقول عمي، إلاّ إن وقوع مدرستي في محلة الجامعين على الصوب الشرقي من الشط، مقابل بيت خالتي في كريطعة على الصوب الآخر الغربي، يظهرني عنصرا مشبوها على الساحة المحلية حاليا يقولون، عدوا صديقا للطرفين في آن لا يرهم. يراني أبناء الجامعين اعبر الجسر العتيق إلى الصوب الآخر لجلب الحليب إلى أهلي يقولون: ذاك هو عدونا يذهب إليهم، حضّروا المصيادات.. هيا ارجموه سجّيل الراجمات! يراني أبناء كريطعة من صوبهم أتمشى أو أسبح أمام مدرستنا مع الأولاد يهتفون بلهجتهم الفلاحية ذلك هو خائن الأصل المصون يتكلم يأنس بين أعدائنا، هيا وجهوا إليه معاجيلكم المذكورة في سير الأولين وروايات الآتين واللاتين!..

عليّ الاختيار بين المدرسة لمستقبلي أو جلب الحليب لأهلي لو أشاء السلامة، أو أدرس في كلكتا أو المنامة، يجب اتقاء شر أحد الطرفين المتقابلين المتقاتلين.. لكني لا أريد ترك مدرستي، كما ليس من المعقول ترك الأهل والإخوان الصغار للعيش

دون حليب، فما العمل والترتيب يا حضرة العم الأديب لإبن أخيك الأرنب الأريب..

عمي يعرف مشكلتي جيدا، جزء من معركة الشرق والغرب، بل والروس الأرثوذكس مع الشيوعية العلمية والرأسمالية النهمية يقول، هو يعلمنا الحساب وغيره في مدرستنا لكن ذلك لا يشفع لي حين يغير الأعداء عليّ، أعداء الحياد الإيجابي الجديد والتقدم الهادئ القديم، يحدث أن أمر في قلب إحدى المحلتين وحيدا دون رفيق، قرع الطبول يخرم أذني، الصيحات الخفية الوحشية تنطلق من كل مكان، مسموعة وغير مسموعة، تهيئ لهجوم، ثم لا اشعر إلاّ والطين والسرجين ينهمران عليّ من بعيد، بعدها أعود ملوث القميص إلى البيت أجابه صياح أمي:

- كل الذنب عليك لا تمشي في طريقك عاقلا.. حتى نظرتك مستفزة!

أما عمي العارف بمشكلتي جيدا فيجدها فرصة ليلقي على رأسي أقاويله الشبيهة بالحكم المزججة المؤطرة المتربة على جدران مدرستنا، يقول:

- عليك فرض احترامك على محيطك، نعم يعني يجب أن تكون قويا، عقلا ساعدا، تعلم الملاكمة في أسبوع واحد،

يقول الكتاب المبجل لا أنا فقط، لكن لا لتعتدي على الفقراء
بل لتدافع عن نفسك وتحقق مجدا!

لكن آه يا الله، كم اكره كل ذلك التدافع والشجار وضرب الأقلام الدائر بين الأولاد، في الفرص وخارج الدوام، نعم أحب أن أرى العراك في الأفلام لا غير، اجلس جوار والدي أو عمي في الصالة المظلمة العطنة بروائح الجوارب والمشروبات المضادة المحتساة خفية أتابع في شغف بلا حدود جري الجياد بالعباد وغير العباد، إطلاق الرصاص بدل أقلام الرصاص، تطاير اللكمات بدل كلمات الفشار، داريا عن أولئك الفرنجة المبالغة، نهايات حسنة غالبا، كل شيء على ما يرام في دنيا جميلة تبكي حتى الكرام، المهم إن ألكم أحدا أو يلكمني أحد ذلك عندي حرام، العياذ بالله من ذلك يقول جدي، حتى والدي يقول: ابني إحسان مخلوق للفن، للهندسة، لدقته وسلوكه الأنيق في البيت والمدرسة..
و.. عمي يثيرني يولول:
- مخنث من لا يمكنه جلب الحليب لأهله ويمضي إلى مدرسته خائفا.

يهجم الدم إلى عيني، أقول لحالي: من مخنث، أنا مخنث؟! آه لو أنا في عمرك يا عمي لتعرف كيف ألاكمك! رغم هذا ألاكمه بعد ذلك في شراسة تجعله يستغيث طالبا الكف عن

الضرب. عندما يعلق الكيس الخاص المليء بالخرق والملابس القديمة في سقف الحجرة ينقدني واحدة من أقواله الشبيهة بالحكم المتربة المعلقة على جدران مدرستنا:

- اعتبر هذا الكيس عدوك، لكن ضرباتك لا تكون سديدة مؤثرة إلاّ إذا وأنت تضرب تشعر أن هجومك بل دفاعك.. تقوم به عن حق وعدالة.

عمي بطران فمَن مِن عشاق المعارك لا تصيبه ضربة إذ ينشب العراك، ومَن لا يفكر بعد ذلك بأنه لا يضرب إلاّ عن حق وعدالة؟ المهم، همي أن اثبت له إنني غير مخنث، أن امضي فعلا لجلب الحليب وإلى مدرستي دون خوف من تعرض أحدهم. هكذا، لا بد من تعلم الملاكمة!..

وأنا أتقافز كقرد مهذب في الجفرة أمام معلمي عبيد المرعب، مرعب بحق، أتذكر كل ذلك كحافز كما يقول العم مدمن الغم لتحرك صحيح، ذيلي أفكاري متطايرة في كل اتجاه، كلٌ منا يجمع قبضتيه أمام وجهه مستعدا لهجوم لدفاع أي لحظة، من بعيد يذكرني عمي إن الجولة مناوشة لا أكثر.. أفكر.. ما الفرق بين مناوشة واشتباك حقيقي وأبناء صفنا يقفون على حافة الجفرة على استعداد للضحك أمام أول هفوة مني، زد كم أسمع من عمي عن الضربات القاضية التي يوجهها باترسون إلى منازليه، كيف لا احلم بتوجيه واحدة منها، واحدة فقط

أصير بطلا إلى الأبد في أعين التلاميذ المشوربين والمتأوربين. آه كيف أتابع حركات خصمي، آه كيف أريد الانتقام من صياح أمي وهزء الصيدلي ولطخات الطين والسرجين على قمصاني، أبقى أحوم قردا مهذبا معذبا حول معلمي وهو يقعى أمامي مقرفصا على أطراف أصابع قدميه، رأسه الكبيرة منطاد، فمه كاسح الأسنان، قبضته نحوي برثن أسد، لا أعي ما أفعل أدفع قبضتي فجأة بعيدا تمضي شهابا أبعد جدا من توقعي، تمرق بين قبضتيه خلسة متسللة، وإذا بها تحط على جبين معلمنا عبيد المرعب.. لحظة و.. يكف معلمنا عن أن يكون مرعبا بحق، يتمدد بطوله في الجفرة مسطولا، آه كم يرفع فرحي أسواق بورصة الإشاعات في مدرستنا، كم تتطاير أسهم خصومي بين التلاميذ. ثم يتضح إن الضربة غير قاضية تماما، ينهض معلمنا نافضا الرمل عن ظهره ومؤخرته، تختفي ابتسامته، تكتسح رأسي صفعة محترمة منه:

- ألا تفرق بين المزاح والجد حسو أفندي!

يغرق عمي في ضحكته، تتلامع عيون أبناء صفنا بين حسد وتقدير. جماعتي تصفق، بطلا أصير، لكن ذلك لا ينفعني، يزيد مشكلتي تعقيدا.

هم يعرفون إنني أجيء إلى محلة الجامعين صباحا للدوام في مدرستي وعند العصر اذهب إلى كريطعة لجلب الحليب من

بيت خالتي، عندها بقرة اسمها كريمة ترجع من مرعاها إلى البيت قبيل المساء. الطريق إلى كريطعة تبتدئ من رأس الجسر العتيق، عندما تحدث مشاكل، تحدث عادة أثناء الصيهود، يقطع أبناء الجامعين الطريق على أبناء كريطعة بوقوفهم في رأس الجسر، يتصدون للرائح الغادي منهم، أكثر من أسبوع يمر في سلام وأمان، مياه الشط مرتفعة، رأسي غير دائخ بتساؤل لمن أفزع في حال نشوب معركة بين الصوبين استمرارا لمعركة بين الكوريتين على قول العم.. كيف يمكنني توجيه أحجاري إلى صوب آخر لي فيه إما صديق أو قريب؟! المهم، لاشيء مهم غير الحرب أثناء الحرب، أختي الصغرى أنس تمشي معي، تمني نفسها بالحصول على رغيف من خبز اللحم الذي تحضره خالتي، أمس جربته بنفسي، نضحك بصوت عال، على مقربة من الجسر يبرز لنا من خلف شجيرات الدفلى أربعة أولاد يتقدمهم ولد أمخط دشداشته ووجهه بلون الأرض، يبتسم كاشفا عن أسنان نصفها متهدم، يقول لجماعته:

- هذا هو بطل الملاجمة الذي خبصتونا به؟

ينشق مخاطه واقفا قبالتي، الأربعة وراؤه في استرخاء، أنظر إلى أختي أنس أحرك شفتي العليا جانبا لعلها تفهم المراد تلوذ بالفرار، لكنها تزم حاجبيها تتخصر له بيديها صائحة:

– ابن الكلب! ماذا تريد منا؟..

لا يلتفت الولد الأمخط نحوها، ينظر إلى أصحابه كضبع مبتسم يسألهم كيف يريدون أن يعجنني.. بيديه.. بقدميه؟ يتصاعد قرع الطبول في أذني، الصيحات الوحشية حولي، أتبين عليّ أن أقرر في هذه النقطة، في هذه اللحظة بالذات، أمام أختي، إما أن تكون جبانا يا فلان، مخنثا حقيقيا إلى نهاية الزمان، أو كما يوصي العم المفصول يوما لشجاعته.. أن أفرض احترامي على من حولي بقوة الساعد! قبل أن يلتف الأولاد الأربعة حولي أو يلتفت أحد منهم لا انتبه إلاّ وقبضتي تندفع في لحظة خاطفة خلف أذني تثب إلى أمام في لعبة سحرية خطرة فالتة من لولبها تقلب كل شيء، لا أدهش أرى خصمي يرفع كلتا يديه إلى رأسه، يحتضن وجهه صارخا منحنيا على الأرض، فيما يفر الآخرون عصافير. تتغير الدنيا في عيني، أقفز حاجزا أعلى من قامتي في سباق موانع، أجري خلفهم أطاردهم، أنس ورائي تضحك تصيح:

– عد.. نهرب.. الحليب يفوتنا إذا فات الوقت!

تبدأ تنتهي الدينونة، أصير آدميا آخر، أكبر سنوات في تلك اللحظة، لا أحد يتعرض لي بعد ذلك... لكن مشكلتي لا تنتهي.. تزداد تعقيدا..

أيام والمياه تنخفض في الشط، يقترب موسم العراك، يظهر الولد الأمخط من بين شجيرات الدفلى صحبة عشرة أولاد تقريبا، سحنة وجهه مختلفة تماما عنه يوم يأكل المقلاع، يتقدم إليّ بخطو لين مسالم، لا اسمع في أذني قرع الطبول، لا تتصاعد صيحات الوحشة حولي، يبسط كفه الأيمن جوار كتفه محييا فعل رؤساء الهنود الاباشي، يقول لي:

- اسمع أيها الولد أنت سبع وأنا أحب السباع، معي ترى عشرة عناتر يمكنهم جعلك طينة.. كريطعة عدوتنا وكل مَن يصادقها عدونا، عليك أن تختار إما تكون صديقهم أو صديقنا.

مرة أخرى هذه الاسطوانة.. أيضا بشجاعة الاباشي وثقلهم أوضّح:

- لكني أريد أن أكون صديقكم وصديقهم أيضا.
- خلي هذا الحكي في جيبك لا فائدة منه.. معنا أو معهم!
- في محلتكم مدرستي.. في المحلة المقابلة خالتي والحليب..
- قل لأهلك يأخذوا الحليب من محلتنا.
- تتعارك محلتكم فيما بينها فمن أي جانب منها نأخذ الحليب؟

ينظر الشقي غير فاهم إلى جماعته، يقول:

- إذاً انتقل من مدرسة محلتنا إلى مدرسة كريطعة.
- لا أريد، مدرستي لا أبدلها..

- هذا لا يخصنا. دمك على بيت عمك بعد اليوم.

يمضون عني عيونهم جمر. في كريطعة الحال أسوأ، بعض قاع الشط ظاهر، المياه في شريعتها نزرة لا يجد الجاموس ما يغطي به جسمه، المعركة وشك الوقوع، حتى أولاد خالتي يقابلوني بوجوه عابسة، يحزنني أن أعرف أنهم اقرب إلى أبناء محلتهم مما هم إليّ، الصيهود الكريه، في المعركة يحتاجون إلى من يؤازرهم، مَن يجمع لهم الأحجار، من ينقلها إليهم، يكثر عدد المقاتلين، خاصة الأقوياء الشجعان، يقتربوا أكثر إلى النصر، يدرون لا انوي الانضمام لصوب، يقول شيخهم:

- معركة غدا بين مدينتنا وأخرى تقول أصدقاء لي هناك كيف أكون ضدهم.. بالمختصر أنت لا تنفع لا تريد أن تعين أحدا.

نظرتهم مستهينة، يمضون عني، يجرجرون معاجيلهم وعصيهم، أولاد خالتي يتنكرون لي، يعتقدون إنني أنا الذي يتنكر لهم، فمن على صواب يا عشاق العراق أو العراك.. أمام الشط أتساءل وحيدا، زجاجة الحليب معي فارغة، أتأمل المياه المنحسرة وماذا تعمل، بعد قليل يمكن عبورها خوضا، ها هم الأطفال في كلا الصوبين يطرطشون المياه على أجسادهم، فرصتهم لتعلم السباحة، حين ينشب العراك يلوذون بالفرار كالجراء مقطوعة الآذان..

أذهب إلى بيت خالتي أنتظر أوبة كريمة من البستان متلهفا للعودة إلى الشط ومتابعة ما يحدث عند الشريعة، خالتي تأبى حلبها في الحال، يجب الانتظار فترة حتى ترتاح ست كريمة، خلالها أرى من فتحة الباب نسوة يعدن بجرارهن وجرادلهن مستثارات، أفهم من ثرثرتهن قد بدأت المناوشات..

- هيا.. هيا يا خالتي.. هاتي زجاجة الحليب!..

ألوم نفسي.. ما الداعي للعجلة وأنا لا أرغب في الاشتراك في عراك، رغم ذلك أتناول الزجاجة سريعا من خالتي حال ملئها من ضرع البقرة، أجري معها كأني أخشى أن يفتر دفؤها قبل الوصول إلى بيتنا.

محاذاة ضريح الخضر أول إشارات المعركة، أحدهم دامي الرأس يركض إلى الضريح، يضع من ترابه على جرحه ما يقطع النزيف. أقرب إلى الشط يتجمع أبناء المحلة، صغار كبار يقذفون الأحجار بمعاجيلهم إلى الصوب المقابل، من هناك يرد أبناء الجامعين عليهم بلهب طائرة وحصى متخاطفة مطرا من رصاص.

النسوة في كلا الصوبين يتصايحن، يحملن أوانيهن، جرارهن، يفررن هاربات مذعورات، آخرون يتركون السباحة في المخاضات يأتون إلى الضفاف، يعينون إخوتهم وأقاربهم في

اشتباك طيّار فوق المياه، يقترب ليكون بالأيدي ضربا مبرحا وسط الشط.. هنا.. على الدنيا سلام.. يقول الكهول.

أتوقف أراقب الضفاف القريبة والبعيدة، يمكن العبور إلى الضفة المقابلة هناك تخويضا لولا هذه العداوات، شيء ما تحت مياه الشط الضحلة يتحرك، لا يمكن أن يكون كوسجا تائها، ولا سلحفاة تبيض، كل المخلوقات مهادنة تنسحب في هدوء مع انحسار الماء إلى حفر عميقة بعيدة، إلاّ الأوادم هنا يشاءون الاقتتال، لاستعراض بطولات كاذبة، لا يبدو ذلك المخلوق اللابط الهابط في الماء آبها لكل ما يجري حوله، يقترب قليلا إلى الشاطئ، رباه.. إنه طفل يختنق، في واحدة من هذه الحفر العميقة التي يحتفرها الجاموس لراحته، لا أحد ينتبه إليه، عشاق العراك مشغولون بالعراك في مثلثهم هناك، إنه يغرق بالتأكيد، صيحتي لا تدفع عنه أذى، لا تنفع، لا يسمعها أحد في هذا الهرج القائم حولنا..

أرمي زجاجة الحليب على أحجار الشاطئ.. أقذف نفسي إليه.. يستمر ضرب الموج الغادر.. كفًّا بعد كف.. من الصبا عابرًا إلى الشباب.. إلى شيخوخة.. إلى آخر يوم من الحياة...



■ **خبر ٧**

الطوفان

يسرع آمر القاطع إلى خارج الحجرة.. يصليه نور الشمس الباهر شلاله الساخن.. تظلل كفه عينيه:

- ملعون الوالدين.. لا شيء تفهم منه.

يتبعه مساح الري، يتوقف عند حافة الظل، الوهج يرقّص الأشياء هناك:

- خوفي من تسرّب.. من كسرة..

صوت قارئ المقاييس يتناهى من ظلام الغرفة وراءهما خفيضا:

- ذروة الفيضان قدامنا.. تفضلوا قبل ما ينتهي الذباب من أكل البطيخ.

آمر القاطع يصيح أخيرا في الفراغ:

- أين تولون وجوهكم.. يا وحدة النقل!..

يظهر من خلف الطوف رجل سمين في بنطلون وقميص خاكي مدهنين، ينفض مؤخرته. يسأله آمر القاطع عصبيا:

- أين بقية السواق الخفر اسطه سليم؟

يومئ رأس الرجل السمين إلى بيت طيني وسط البساتين:

- راحوا يطلبون كسرة خبز.

يتطلع آمر القاطع إلى الحقل المجاور للنهر، رأس الفلاح يطفو فوق أمواج الحنطة المضطربة مع الريح، يغرق تحت مستوى السدة الترابية، يرفع آمر القاطع قليلا قبعته المخرمة البيضاء فوق رأسه:

- ملعون الوالدين يركض كأن سعلاة تتبعه أو سلاة في مؤخرته..

ويأمر جزعا السائق المنتظر في الشمس لامع البنطلون والقميص:

- مثل الطير سريعا إلى جماعتك.. حضروا سياراتكم.

صيحة أخرى من الفلاح، يجري على السدة الترابية، الريح تهفهف دشداشته راية مثقبة:

-... يا أهل... الرحم... الحقو..

ترمي الريح نداءه إلى النهر المتبختر حبلى هناك.. يشاركه الاحتدام..

تصل سيارة الجيب تتوقف أمام حجرة المقاييس، سحابة ترابية تغبش المدخل، يضطر المنتظر هناك للدخول، يستيقظ رئيس العرفاء أخيرا، شرطي يحمل ثلاثة خيوط إلاّ أن الجميع اعتادوا تسميته رئيس عرفاء لسبب لا يعرفه أحد، قصير قامة، سمين جدا، أحمر لامع الوجه حليقه دائما، شمندر مسلوق، بنطاله حتى الركبتين تحتهما شريط ملفوف على الساقين خاكي أيضا، عيناه مشعتان عن تحفز مخيف حتى حين يتكلم مع مدير الناحية. يفتح عينيه فزعا، يتطلع حوله مستفهما، لماذا هو ليس في خيمة البنات الراقصات.. لا يدري.. يتقلب على التخت محاولا الإغفاء.. الفلاح متقطع الأنفاس عند العتبة يعكر قيلولته:

– قاتل ومقتول.. أقارب وأخوة تذابحوا.. مصيبة.. طرقاعة..

يدمدم آمر القاطع تثقب صلعته سياخ أشعة الشمس الحامية:

– الحمد لله. رئيس عرفاء تحرك، شغلتك، آل يعرب وآل أكبر يعلقوها.

يتململ رئيس العرفاء في إعياء مهموما:

– عادت سليمة إلى رقصتها القديمة.. أعرني سيارتكم يرحم والديك.

يرجع آمر القاطع إلى التخت تروّح وجهه قبعته المخرمة البيضاء:

- غير ممكن بتاتا، لا ندري متى تنفتح كسرة في السدة، يتسرب الماء ماذا يركبون حينه.. قملك؟ عندك حصانك سعد.. عندكم طرمبيل..

يسعل رئيس العرفاء قويا مؤكدا صحوه، يضع سدارته على رأسه باحثا في تلفته عن بقية حلمه مع الغجرية سليمة ورمزية على رمل الشاطئ.. الرقص على رمل غير ممكن.. جنون.. تجن حتى العاقلات.. يتناول عصاه المدهنة:

- الطرمبيل مع مدير الناحية.. يصيد على ديرة النفطاية. راحة النفس واجبة.

• • •

ثلاثة من أفراد الشرطة يتبعون على خيولهم رئيس العرفاء، يلحقون به عند استدارة النهر، يترجل عن حصانه، يهبط السدة الترابية، يقوده خلفه من اللجام، يسيرون جميعا في مثلث رأسه رئيس عرفاء..

أخيرا يربط حصانه أسفل شجرة التوت على مقربة من بيت طوف، يقابله حشد مكفهر من أهل الديرة، كبار صغار يهشهم

بعصاه، يمضي في عَظَمة محاذاة حقل حنطة يتلفه الماء، يتجنب السقوط في برك على الجانبين. الخيالة الثلاثة وراءه. يجري بعض أهل الديرة يختفي خلف البيت حاملا شيئا بعباءة سوداء.. يصيح رئيس العرفاء ملتهب النظرة:

- أين المفر لكم من غضب الذي لا يرحم لا ينام، وجهي أصفر عيوني حمر لا من أكل البطيخ والرقي.. من السهر على أمنكم يا منا.. ملاليك!

يلتف شرطي من الثلاثة حول البيت في الاتجاه المعاكس، يعود يجر شابا مدمى الوجه. وراء الحشد رجلان على الأرض يتداعى ظهراهما إلى حائط البيت. أحدهما يضغط قطعة صوف محروق على رأسه مغمضا. الثاني يلهث مدلع الزيق يرتجف محموما..

يضج رئيس العرفاء زاجرا تابعيه:

- أولاد الحلال مَن دعاكم إلى هذي الطهارة.. طيارة إلى البيت الآخر.. خرفان ثلاثة أنتم والله لا فرسان ثلاثة!

يبقى الثالث جواره. يصيح رئيس العرفاء جزعا رسمي النبرة:

- مقتول مجروح غير هذين الرأسين موجود.. لا؟

لا يرد أهل الديرة. يدفع رئيس العرفاء بطرف عصاه اليدَ الممسكة قطعة الصوف المحروق، يفحص الجرح غير مبال، يتمعن الوجوه الحائمة حوله، يدفع بعضهم إلى الخلف:

- خلوا المصاب يتنفس هواء الكريم.

حرمة السلية لا تحتمل الصمت.. مهتاجة تولول:

- آل يعرب.. ينهجم بيتهم إنشاء الله. عوج يطلعون لنا يوميا مع مصيبة.

تتوقف سيارة الجيب على السدة الترابية، يترجل مهندس الدورية، يتمشى جنوبا متفحصا السدة.. الحرمة تواصل عصبية:

- الأرض تشهد.. تنوّع بعينك رئيس عرفاء جمبش.. مَن فتح الماء غير العوج علينا قبل أسبوع.. ها؟.. و..

يخزرها الرجال غاضبين.. يقاطعها رئيس العرفاء نبرته جزعة:

- يا ناس يا عالم ألف مرة أقول اسمي جميل جمولي جيمي لا جمبش، ألف مرة نقول أتركوا هذى الأرض للنهر انتقلوا إلى خلف السدة، سدة قوية هذي سدة حكم، لكنكم لا تسمعون لا تجوزون إلاّ حين يثور الماء عليكم ثورة فرنجة معتبرة يهدم بيوتكم..

المدعو شتيوي، راعي دواب الشيخ، يتدخل في كلام الكبار:

- مشاغب يفتح الماء.. كسرة.. يتسرب الماء من ربه.. ما فائدة الكلام والكل لا يميز في بلبلة الأخبار بين معقول وعاقول بين طماطة وخيار!

آخر من الحفاة ذوي الدشاديش يستنتج:

- المشاغب من غيرهم.. المهم زرعهم يتلف. البلاغ.. اتركوا أرضكم!

تطعنه نظرة رئيس العرفاء الملتهبة. لا يسكت الحافي لا يرتدع:

- التحوط بالتمام والكمال بلا كن أحدهم ماكر غريب يغافلهم يعملها.

ينتهره رئيس العرفاء:

- سد حلقك غضبان ما طلبنا شهادتك.. لولا احترامي لوالدك ضاري أقيدك أنفيك إلى المركز على حمارة جربة.. شيوعي آخر زمن ابن شيخ!

- على كيفك رئيس ظرفاء.. نخلص من متعنّت متصنّت نُرزق عشرة!

- تعيب لك ها الكشرة.. اترك تعالمك على المساكين.. تحفيت تظن تصير منهم.. عداوتك لوالدك تخليك تطعن سيرته بمناسبة وغير مناسبة.. هو ما أول ولا آخر مَن تزوج على حرمته.. تتصور الكبَرَه غافلين جربوع غضبان؟

يعدل ابن الشيخ سترته النظيفة على دشداشته المقلمة يتملص من كلام خاص غير مرغوب إلى عام مطلوب:

- العاقل يعرف آل يعرب لا يعملوها.. أرضهم تجاور أرض آل أكبر.. الذي يصيب الأحمر هنا يصيب الأصفر والأخضر.. الباذنجان والباميا..

يسدد رئيس العرفاء نظرته إلى المتهور غضبان.. طيف راقصة الرمل رمزية يتمايل وراءه.. ينزل من الهواء إلى الماء شبه نعسان:

- اترك الناس لمشاكلها تركك الزيارة وشغلة الحفارة.. خليك وراء الكاولية.

- خلينا بالمهم.. هم يدرون الأبله وحده يعتقد سد تراب بينهم يمنع تسرب ماء يغرق أرض الجار.. النتيجة قدامنا بينة ما هينة.. والحاصل؟

الحشد في هياج.. حرمة السلية تنتفض تصيح:

- والحنطة؟ مَن يحاول إشعالها قبل حين غير قايم صلاة بغير أصولها!

يشيح غضبان بحثا عن حكمة في بساتين النخيل خلف السدة الترابية، قلعة والده الشيخ وكر عفاريت منتصبة هناك على طريق الرائحين الغادين:

- أدري وأنتم تدرون مَن يحاول ذر الخلاف بينكم.. بلا كن حب العراك مع الأضعف مع المختلف يحرف قلوبكم عيونكم عن الوجهة الصحيحة.

صمت، الجمع لا يفهم كلام غضبان الملتبس، من السدة ينحدر مهندس الدورية مع بعض الموظفين متجهين نحوهم. يعين رئيس العرفاء أحد الرجلين المتداعيين إلى حائط الطوف على نهوض، يقتاده إلى حافة الماء.. رمزية وسليمة ترقصان عليه.. قبلهن سيد السلام سار عليه.. الدنيا تتغير كثيرا.. يغسل الرجل وجهه، يقتعد الأرض تحت شجرة غرَب أغصانها تدغدغ سطح التيار..

حرمة السلية ترمي أذيال عباءتها على كتفها هائجة:

- لا يفعلها أحد غيرهم، عسى يقطع الله أعمارهم، خلهم يحمدون الإصلاح الزراعي يسوّي أولاد شطيط ومعيط سادة وسلاطين.

يعاتبها غضبان ابن الشيخ:

- لا تتطاولي على الناس يا حرمة، الحال واحد، الدنيا تنسى الإصلاح وتقسيم الأرض وأنتِ عايشة أيام زمان وساعات عرس الشباب.

يضحك بعضهم.. آخر في غضب:

- الأرض حق ذراعنا تعب أعمارنا.. ما بلاش ينالها الآدمي.

الريح تحمل ما لا يُرى إلى كل مكان، يلتفت غضبان إلى القلعة خلف السدة:

- عرق جبينك لهذي الأرض لا تنساه.. والمحفوظ لا ينسى محصولها.

تتحرك هامات النخيل مع الريح رؤوس عجائز تستعيد ذكريات.. بعيدا رئيس العرفاء يعبر برك المياه.. يتناهى جئيره متذمرا:

- والله ما تفض قضيتكم إلاّ ذبيحة وعزيمة صلح تحييها رمزية وسليمة.

يشير إلى النهر المحتدم بين الضفاف.. الوحش المقيد بسلاسل.. يضيف:

- عجيب أمركم يا ناس، لا أحد يدري متى يجرفكم السيل، زرعكم يهلكه الماء، كسرات الضفاف تتوالى، يا عالم ما بقى لكم غير النزوح إلى خلف السدة.. تنجو أرواحكم.. ممتلكاتكم..

صمت يكبل الحاضرين، نظراتهم خرساء، جذورهم في الأرض أعمق من جذور الأشجار المزروعة بأيديهم أيام خير ومحبة. يعقب غضبان:

- المحير لا بقاؤهم هنا.. المحير خصامهم.. إقامة سداد بينهم.. إثارة طائفية.. وذاك النهر ينهش ضفافهم كل يوم!

شتيوي الراعي الفقير ينصت لرشق الكلام.. يتذمر مبحوح الصوت:

- سبحان الله يتقولون على النهر حامل الخير كأنه الكلب المسعور!

يضيق رئيس العرفاء بطوفان ثرثرتهم عليه، يصيح طاردا بعصاه المفضضة المدهنة متجمعين أمام مدخل البيت:

- كل واحد في طريقه يا لله.. ما عندي مسرح الأضرومليي هنا..

وينذر الجريح الثاني المنشغل بقطعة الصوف المحروق على رأسه:

- عيب عليكم دفع القضية إلى شكوى ومحكمة.. النتيجة قلابالق.. لقلقة لقالق.. الأحسن ذبيحة وليمة صلح.. والله غفور رحيم..

- هم لا يريدون الصلح ولا المحكمة سيد جمبش.. غايتهم غرام وانتقام..

ويستدير غضبان ابن الشيخ إلى شتيوي الراعي يحكي له:

- تذكر شتيوي في صغرنا النهر عندنا أعز ما في الحياة، ليل نهار نتقافز فيه مع سمكه اللابط، رائح غادي كل الوقت منه إليه، لا يوجد ما هو أجمل أرحم منه. يوما أسبح بعيدا عن الجرف أبقى ألعب يغلبني التعب.. أقرر العودة.. الجرف بعيد.. و.. يبدأ بيننا عراك..

يصيح شتيوي يبدو غير سامع تماما:

- عراق؟!

- عراك مع النهر.. يصير وحش السندباد بسبعة رؤوس يريد ابتلاعي وأنا أقاومه بين بأس يأس حتى أسقط بلا وعي على جرفه.. أفهم للنهر.. لكل الأشياء.. أكثر من روح.. أكثر من معنى.

يطغي صوت رئيس العرفاء معاتبا مهددا:

- كفى لغوة.. المصالحة اليوم أحسن، وليمة وننتهي قلنا..

ينهض الرجل الجريح، يرمي قطعة الصوف المحروق، يهدد:

- لا على بختك، يعتدون علينا ونقبل الصلح.. بتاتا.. ما نسينا أفعالهم السابقة.. كفى.. معنى ترك دابتهم ترعى بأرضنا لا رداد لا سداد؟

شتيوي مبحوح الصوت ينصحه بلغة ريح الأعالي:

- تعوذ من الشيطان اسمع كلامي.. جماعة آل يعرب تحلف بالقرآن على إن الدابة مربوطة شدتها يحلها أهلها أو طالب فتنة.. اذكر الرحمن.

يحرك غضبان رأسه كالعالم بالغيب، يهمهم مشيحا نحو القلعة:

- يد تحرق المحصول تغرق السنبل قادرة أكثر لتهجير وتكبير أرضها.

شتيوي في دهشة:

- غضبان أنت عون لوالدك أو فرعون بيّن لنا.. لا نفهم مع مَن أنت!
- مع الحق..
- مع البق؟!

يضحك رئيس العرفاء.. يسأل مكفهرا.. نظرات الجميع تنتقل إليه:

- ما قصدك غضبان يا زارع فتنة.. ذاك ابن صفك إحسان بعد دراسته مهندس مهندم وأنت مع خرطك عن صراع طبقي وطائفي حافي تدوخنا..
- رئيس ظرفاء بذمتك.. أنت مرتاح من حالك؟.. أنت ضحية مثل الكل!
- يا بائع الذمة بهوى النسوان كل زواغيرك دوّرتها.. أبوك ضاري شيخ محترم يصادق حتى فرنجة وأنت تنبش تحته وتتمنى موته!
- لا كل فاتح عينه على نكسة وكسة زارع فتنة سيد جمبش.. ولا كل مَن يصادق الأجنبي يجانب أو يملك الحق..
- تستمر أقص لسانك بمنجل، مكانك حدر الرقاصة رمزية ندري خبركم.. أبوك يحلفون برأسه لا تعفره.. تراه وكّلني أمورك كلها.. فلا تلصها!

يخفض غضبان نظره ينقب عن تبر في رمال وشتيوي ينصح غير مبال:

- ما علينا.. رحم الله القائل.. من يكن بلا عزيمة يجد الوليمة أليمة.

تتحرك هامات النخيل بالريح رؤوس عجائز تهزها ذكريات وآهات...

• • •

يحضر المهندس، يتجاوز الحشد المتجمع بين البيت وشجرة التوت، وجهه ينضح عرقا عن تعب وقرف، يلين حين يصافحه غضبان يسأله مازحا:

- واليوم غضبان يا غضبان.. يعني أصدق لعنة الأسماء وقدرها؟!

- ننتبه إلى قدرها نتجنب شرّه وأثرها.. وإحسانك مهندس إحسان باق يعني الاسم نعمة أو نقمة حسب فهم الحال.

والراعي شتيوي يقترب يصافح إحسان.. معه يمزح المهندس:

- شتيوي قدره في يده واضح. لا يخاف الحر ولا البرد.. دالع زيقه دائما!

يفرح شتيوي من ملاطفة المهندس يرد في مودة ظاهرة:

- الصاية هديتكم حافظها للعرس.. ادع لي مهندسنا ربنا يقربه!

يتفحص المهندس المكان، يبتعد إلى ضفة النهر، تدك قدمه الأكياس الترابية المرصوصة، يده تهز الأعمدة الخشبية المغروزة لصق الحصران داعمة حافة النهر، يتبعه البعض جوار النهر يلتف حوله يراقب نظرته النكدة المنقبة بين النهر والسدود.. يجرؤ أحدهم يسأله:

- حضرة المهندس ما قول المقاييس اليوم؟

يواصل مهندس إحسان فحص مضادات الماء، يرد مهموما:

- بكرة ذروة جديدة.. يكتمل مثلث الماء عند انعطافة النهر هناك نغرق.

تتحسس قدمه الكتف الترابي محاذاة النهر، الفلاح يلاطفه:

- مهندس إحسان لا خوف علينا. سدتنا المصنوعة من البواري من سعف النخيل وتراب الحمل أقوى من سدة الحكومة وما عليها من سيارات وجاروفات..

يشيح مهندس إحسان عن حاجز بين أرض وأرض مجاورة يحذّر سامعه:

- ألف مرة قلنا يا عشاق السدود والحدود لا تنقلوا التراب من خلف تلك السدة.. تثقبون جيوبكم بأنفسكم.. ماء ينز مال

يتسرب.. خطر.. اليوم عشرات الحفر على ذاك الجانب مليئة ماء أسأل مَن يعملها أسمع.. لا ندري والله!

الفلاح كالمعتذر:

- حضرة المهندس خذ حفنة تراب حكّم عقلك من أي مكان نجلبه، نأخذ حميرنا حاشاك نسوقها إلى خلف البساتين من هناك يشهد الله نحمل التراب.

مهندس إحسان يرفع كف تراب من الحاجز الفاصل بين الأرضين الموازيتين للنهر، يفحص التراب، يشمّه، يرميه في الهواء:

- قاع برميل نفط. يا عالم ألف مرة قلت الرمل لا ينفع. يسرب الماء مثل منخل. تتعبون أنفسكم في نقل هباب. لا موجب لحواجز بينكم.. التدبير تدمير في هذا الحال..

يتبادل الفلاحون نظرات لائمة، يقول الأقرب مترددا:

- حضرة المهندس وزعوا علينا بعض أكياس التراب والبواري عندكم.. نفعها اليوم نفع البرنو..

المهندس يُستفز.. ينبري عليه:

- لتقيموا حواجز بينكم أعلى من الحالية؟ النهر نتركه للرحمن يحميكم منه أو لا يحميكم.. أنتم تخافون الصفا بينكم أكثر من الطوفان!

في طريق عودته يستمهله رئيس العرفاء ملوحا له:

- يرحم والديك تعال هندسنا مهندس إحسان، وصل رسول الشيخ لمصالحة فلاحيه السابقين آل يعرب وآل أكبر.. يركبون رؤوسهم لا يرتضون وساطة لا ينزعون لحكمة ولا لمحكمة، كل واحد يريد أخذ حقه بيده، أخاف يخلص صبري مثل جياع الفرنجة أضرب رأس هذا بذاك، أسويها مقصلة ونخسر وليمة الشيخ ورقصة الصلح وقعدة برلمان معتبرة في مضيفه الترف.

لا ينتبه المهندس لكلام العريف.. يقول لفلاحين خلفه دشاديشهم مهفهفة بالريح من جهة النهر رايات منكسة:

- طيب.. سيّروا إلى مركز القاطع حمارا محترما لنقل بعض الهواليش* والبواري شرط استعمالها مقابل النهر فقط... لا بين أراضيكم... مفهوم؟

يضع بعضهم يده على صدره امتناناً...

ينظر مهندس إحسان إلى غيم السماء يتمتم في رجاء:

- لو الريح تهدأ... يمر كل شيء في سلام...

• • •

---

* أعواد خشب طويلة تغرز لصق البواري لحصرها وتثبيتها إلى الضفة.

تهدأ الريح، يتقاطر أفراد من آل يعرب وآل أكبر وغيرهم إلى وليمة الشيخ مهتدين في الظلام بمشاعل فوق بوابة القلعة وسورها الأمامي، تضيء المدخل والنخلات القريبة، يغادرون بيوتهم الطينية بعد صلاة العصر، يجتازون الحقول الموازية للنهر، يعبرون المسافة إلى السدة الترابية محاذرين السقوط في برك مياه الأمطار وكسرات الضفاف..

من السدة يبدو مشعل الشيخ متوهجا داخنا عين جني لابد في عمق الليل، ينزلون إلى البساتين حالمين بوليمة المصالحة، ينحدرون إلى القلعة في النهاية..

أحدهم يقول في كبرياء للجمع المتحلق على أبسطة المضيف:

– غضب لله هذا.. طوفانه على قوم نوح لفساد.. والدور علينا عاد.

يمسد البعض لحاه صامتا، آخر يؤكد مبعدا تهمة:

– إنذار محتوم تحذير مفهوم، أخ لا يثق بأخيه، جار لا يحترم جاره، حمار تتركه يفقد عذريته قبل عودة المالك..

يصيح الكهل ثقيل السمع مستفسرا:

– شيخ المالكي شيء به؟ جاء إلى الوليمة؟ ما شاء الله أمورنا فخيمة!

رجال من آل أكبر وآل يعرب يجلسون مطأطئين رؤوسهم متقابلين. الحديث هناك بين الشيخ وضيوفه موظفي الحكومة على التخوت في غير موضوعهم، الشيخ يقول:

- بلد وزر واحد منكم كم ساعة لا يعطل أعمال الفيضان.. تمام؟

يرد أحد الأفندية متمازحا مثله:

- كيف لا مولانا. ينهزم خروف من قطيعكم يؤثر عليكم أو لا؟

يرمقه الشيخ معجبا بذكائه.. يرد مبتسما:

- لا يؤثر وحياتك.. حتى لو ينفقد زوج منهم..

يفتح الأفندي ذراعيه يقهقه ملتفتا إلى الأفندية الآخرين يشاركهم الضحك والقضية، فينزل رئيس العرفاء ميدان النقاش طوعا مستعرضا فطنته وفنه:

- حَلْ فرنجة.. ساعة وشطرنج البارحة.. خروف وجاروف اليوم.

أحد الفلاحين على الأبسطة قرب التخوت يهمس في أذن جاره:

- نحمده.. البلدوزر يشغلهم .. نسوا النزاع.. تركونا لحالنا.

جاره خفيض الصوت:

- أي نزاع يرحم والديك! كبيرهم بقلبه يقول عسى نارهم تأكل حطبهم. فكرك نسوا مشارات أرض الاصلاح المصادرة؟

نسوا البوسات على يد المحفوظ؟ خلينا نحمده نضرب بالخمسة الوليمة..

ينصحه الأول ضجرا من الانتظار:

- كفانا تبسبس، على بالهم نتآمر، رحم الله من يجب الغيبة عن نفسه.

ويلتفت جانبا يلقي على جاره الآخر سؤالا رافعا صوته:

- كيف حال السداد عندكم.. قوية بعونه؟

يرد الجار من خلال سعال عنيف:

- مثل الحديد.

- ما لكم نية نقل أغراض بيتكم إلى خلف سدة الحكومة؟

- تخسأ.. واترك زرعاتي وشجراتي للسيل!

• • •

رائحة دهن محروق تهب من ساحة القلعة، يخفت الضجيج في المضيف، تتصاعد همهمات وسعلات متفرقة، بعيدا فوق السدة تنطلق رصاصة تمزق سكون الليل، تثير الهواجس والشكوك، تعبر الفضاء في أزيز واه.. تمتد خيط نار.. ومنسف الطعام آت من بوابة المضيف، تلال الرز متوجة بقطع اللحم المسلوق الكبيرة.. رصاصة أخرى تنطلق.. تئز نذير شؤم... يتلفتون..

تلتقي نظرات مستفسرة.. تطلب ردا ليته لا يتأكد ولا يؤكد الظنون..

... طراخ!!!.....

تتبعها فرقعة ثالثة.. تفز تفر نداءات وتكهنات:

- كسرة!.. كسرة نهرية كبيرة!..

- لا ينفع عشاق السدود الداخلية ما بنوه.. يعنفهم أحد الموظفين.

يخرج رجال من المضيف إلى ساحة القلعة، يتبعهم آخرون، يصعد بعضهم السور، يغمرهم ضوء قمر أبلق لا ينير غير وجوه شاحبة..

يشير أحدهم إلى المثلث البعيد المتحرك لماء النهر:

- الطوفان.. يمد سيله كالسيف.. هناك عند ديرة النفطاية.. ها.. ها..

لا أحد يسأل في أية أرض من الديرة يمد الطوفان سيفه، تتدفع في البدء ثلة من الرجال إلى خارج القلعة.. يلحقها آخرون...

داخل المضيف رئيس العرفاء يهمس للضيوف الأفندية في أريحية:

- أمان.. السيل لا يصلنا حتى لو يكنس آخر حائط طوف هناك.. للسيل مهندس ورب سادة الحضور.. أين رمزية وسليمة تدوران لنا برقصة الحبور..

الشيخ يحسم تردده أخيرا، يرمي عمامته إلى التخت، يجري إلى البوابة:

- ورائي أخوتي.. العون مطلوب.. هذا وقت مناقب لا مطالب ومناحب.

في القلعة وخارجها لا يبقى أحد يتفرج..

الجميع يركضون إلى النهر.. ليصدوا ليهزموا الطوفان...



▪ خبر ٨

مشتهاية

رائحة الخبز الساخن تفوح من التنور القريب، تتماوج مع دخان اللهب، تقوى تضعف مع كل هبة من هبات ريح تغير اتجاهها، ساحرة مخدرة مثيرة للشهية، شتيوي يشمها ملء صدره مغمضا مرتفقا الأرض قرب خراف مخدومه شيخ ضاري ومواشيه، ترعى العشب البري الخشن أمامه، يتصور مائدة عامرة بأطعمة باهرة يهبها الجني الأسمر لمن يملك الخاتم المسحور.

يفتح شتيوي عينيه يتطلع إلى السماء، الشمس لما تزل في سهبها الشرقي، تجتاز سمت الرأس بعد إتمام الحفارات تلاً آخر جوار الجدول، شقه متواصل من خصر الفرات المنساب منذ الأزل، منذ الصغر، إلى رجولة حالمة ببنت حلال ترضى به، تقاسمه بقية العمر تسعده بالنكاح.. على أرض بور تصير جنة نخل برتقال وتفاح.. بجهد وصبر وكفاح..

مزارع خضراء، جداول، نهيرات، يتعب ناس في حرثها، شقها، سيارات شحن تحمل الثمار من يوم لآخر إلى بلاد الله الواسعة، كل شيء يتغير إلاّ شتيوي وصحبه عشاق الصبر فقّاد الأمر، لا يختلفون عن تلك المكائن البعيدة، تمهد الأرض تفتح الجداول، وما تزال تسعى تزرع الآمال، حتى ولا اختلاف لهم عن هذه الدواب.. تُعلف باليسير.. للمهاجع تؤوب والراعي معها يسير.. تُحلب كل يوم من غير شكوى أو تدبير.

إيه.. يقول شتيوي.. والله عالم غريب عجيب.. لا فرحة رغم عمر دءوب!

ينفث حسرة طويلة متأملا الشمس متألقة كبيدر سماوي كبير، في إسراء يومي فوق الرأس ليس فيه تغيير، تصل السمت يأتي الأعضب إليه حاملا قليلا من التمر واللبن ورغيف الشعير، مرقة في أحسن حال يطبخها الطهاة في مطبخ الشيخ من الفلفل والطماطم. غير شتيوي كثيرون يملون الرتابة، يهاجرون إلى المدينة هاربين من كآبة، يلهجون بإسم الإصلاح الزراعي وبركاته، يكتبون عرائض إلى الوزارة، تُعطى أراض لبعضهم، يبقى هناك مَن يبقي.. يعود مَن يعود.. يذهب مَن يذهب إلى البادية..

رائحة الخبز الساخن تتغلغل في صدره.. تنتشر في الآماد والأبعاد.. يفكر في النهوض والكلام مع ابنة ذياب السلية، لكنه

يخشى تفكيرها بتقرب لها لطلب الرغيف، هي هناك تجعّد وجهها المليح تنحني على التنور أمام وهج النار، تلصق أرغفة الشعير السميكة بجدران الفخار، صدرها يهتز، يتذكر ذياب وحدّة نظرته.. ملعون ذياب.. يشتغل عند الحكومة، يسكن البيت الآجري، عينه دوّارة ليل نهار، غالبا يهش شتيوي دوابه إلى البيت هناك ترعى حوله، يحمّل نظراته أشواقه استفساراته لابنة ذياب لعلها تستجيب، يلفحه لهيبها مرة مرتين، تخفي خصلات شعرها خلف الفوطة، يغامر يبوح متكئا على عصاه:

- فهّامة يقولون لأسمائنا تأثير علينا يؤكدون لو يتشارك آدمية وآدمي بثلاثة حروف من الاسم يعني قلبهم واحد.. دربهم واحد..

تبتسم ابنة ذياب في خجل، تشيح عن الدخان ترد في وجل:

- أبوي يطلع يشوفك هنا يسويها علينا قصة عنتر وعبلة..
- عنتر وعبلة يشركهم حرف واحد صاروا قصة للعالمين ونحن.. ثلاثة!
- شتيوي خوي ما عندك شيء تفكر به غير خزعبلات عرافة وخرافة!
- مشتهاية يا بنت الناس طالبك بالحيل والحلال من غير احتيال.

- لا حلال لا مال لا سقف عندك تريد ذياب أبوي يوافق!
- لا تزيدي قهرنا. عندي شهود على وعد شيخ ضاري يكبّر حجرتي يزيد أجرتي غنمة. قريبا لي قطيعي الخاص. وريث لي كل شيء تمام!
- طالعة عينك أنت.. الخبز راح يحترق.. وخيزرانة أبوي هناك تبرق.
- قبل الخبز قلبي محروق منك مشتهاية.. وقبل البرق فداك أنا للنهاية.

يظهر ذياب عند باب بيت الحكومة، يعود شتيوي يهش الدواب، يتفرج على أعمال حفر الجدول الجديد، الوقت الملائم لطلب مشتهاية منه آت رغم الجوع.. يدخل البيت حاملا بندقية مدير الناحية وخراطيش الصيد.. تحين الفرصة.. سوف يسدد ذياب إليه نظرته الحاقدة، وسوف يرد عليه بلا تمهل.. جئتك طالبا قربى.. وسوف يطرده ذياب.. الفقير للفقير فلا ترفع رأسك.. البيت ليس خان جغان ولا دكان.. البيت دائرة رسمية..

البيت يبدو فعلا دائرة رسمية، غالبا يحضر إليه مدير الناحية أثناء تجواله للصيد، مهندس إحسان عند راحة، غاية في الأهمية هذا البيت حين يرن جهاز التلفون على منصته في

ربضة فهد أسود، ينقل ذياب "التيلفون" أحيانا إلى المنضدة الكبيرة أمام الباب، يتكلم منه شخصيا كل يوم بعد قراءة مقياس ارتفاع الماء في الفرات.. تضيع فرصة الكلام معه.. يخرج شتيوي في صمت على أطراف أصابعه حال ينقل البندقية والخراطيش من سيارة مدير الناحية إلى بيت الحكومة، ذلك طقس يصير عادة يجب كسرها، لا يتجاسر على انتهاكها، طلب رغيف خبز مقابل خدمته للبيت حينا وآخر لا يغني لا يسمن، المهم طلب الخاتون من أبيها ضروري محتوم، خلاف رغيف خفيف لا يداوي جوعه العتيق كما يجب، لا تداويه غير وليمة من ولائم الجني الأسمر، خادم الخاتم المسحور ذي الحجر المثلث المنقور، وقت كل الخواتم فدوة لمشتهاية أم قصيبة، دنيا تدور يا رب تصير من نصيبه، لكن بلا جهد لا يصل آدمي إلى ما يريده، عبد فقير مُلكه حصير أو غني راكب مصيره، نعم.. جهد عن جهد يختلف معلوم، لا بأس، تزيد التدابير والفنون يكبر المفهوم والمقسوم..

بعيدا، على الطريق الترابية المحاذية للنهر، سيارة مدير الناحية تتهادى أمام غيمة ترابية كبيرة، يتهيأ شتيوي على عادته لاستقبال المطلوب متناسيا رائحة الخبز.. نظرة مشتهاية.. تسببان ألماً له في المعدة.. دوارا في الرأس.. شيئا فشيئا تقترب السيارة، تتوقف أمام بيت الحكومة الآجر، تزحف

الغيمة الترابية تجتاز السيارة تحرك أغصان شجرة التوت القريبة من التنور، تتململ ظلال فروعها الطويلة الممتدة حتى البيت، يجري شتيوي يتناول البندقية والخراطيش من السائق، يسلّم على الحاج مدير الناحية من غير النظر إلى وجهه الناعم اللامع، ويمضي بمهمته الرسمية يخترق البيت الرسمي في منتهى الجد، ذياب يقسمه قسمين أحدهما للحكومة، الآخر للحرمة والصغار، يعلق شتيوي البندقية والخراطيش بمسمار حائط الحجرة الخلفية يعود يرى الحاج مدير الناحية يحك صلعته في تأن يتكلم في هدوء مع ذياب.. لا.. هذا ليس وقت مفاتحته بشأن ابنته مشتهاية..

ذياب بطيء غامض الكلمات دائما يحذر إفلات ما ليس قد المقام:

- يا حاج اتصل القائمقام بالتيلفون أفاد عن حضوره مع الجماعة إلى هنا للاطلاع على سير الحفر في المشروع الجديد..

الحاج مدير الناحية ينقش بظفره حرزه الحريز على صلعته الوردية في تأنيه وهدوئه.. يحرك شفتيه في أقل ما يمكن من جهد يكلم حاله:

- ها... أهلا وسهلا.. أهلا وسهلا بالقائمقام..

يعود شتيوي إلى السيارة ينقل طرائد يصطادها الحاج في طلعته العابرة للأحلام، يتناول من السائق ثلاثة طيور (طبن) و(دراجة) مذبوحة، رقابها متراقصة، يحملها من أرجلها رؤوسها مدلاة، يدخلها إلى البيت، يطرحها على حافة المنضدة الكبيرة..

الحاج مدير الناحية يتوقف عند الباب متباطئا ينادي في وهن:

- رئيس عرفاء جمولي.. تعال..

يسرع رئيس العرفاء إلى الحاج يتوقف عند الباب يحني رأسه يخفي عصاه الغليظة ذات الندب خلف ظهره تأدبا احتراما مصغيا إلى الحاج مدير الناحية..

يمسح الحاج بحكم العادة صلعته بباطن كفه يقول:

- رئيس عرفاء يزورنا القائمقام.. أين تدبر لنا عنجلية اليوم؟

حال يسمع شتيوي كلمة (عنجلية) ينطقها الحاج تعود إليه رائحة الخبز، تجتاحه، تتراقص أمامه وليمة جني الخاتم المسحور، والشرطي رئيس العرفاء يهرطق في أو من غير منطق:

- أمرك سيدي.. شرق غرب.. كل جهات منطقتنا مفتوحة لكم..
- الجناح الشرقي ضيّفنا.. طوفان.. حرب طوائف.. مشاكل لا تنتهي.. خلي الغربي يضيّفنا.. رأيك جاسم البطي؟!

- مُعتبر، أخلاقه أخلاق فرنجة، دائما يتمنى جاسم البطي زيارتكم..

ضحكة قصيرة من الحاج.. يعقب ساكن الشفتين:

- هذا وقته.. توكل على الله.

يؤكد الشرطي امتثاله بـــ (حاضر) قوية، وجهه جد مجد، يشير في خطورة إلى شتيوي مع إيماءة سريعة، يقترب، يمسكه من كتفه يهمس في أذنه:

- المحروس سعد!

سعد يعرفه شتيوي جيدا، يعرفه الجميع، حصان أبيض جميل يعتز به رئيس العرفاء اعتزازا كبيرا، حتى صار البعض يناديه أبو سعد، يسرح دائما في بستان التفاح حين يكون رئيس العرفاء في معية مدير الناحية أثناء تجواله، لكن سعّودي يسمن كثيرا المدة الأخيرة، رئيس العرفاء يحزن يفكر في حصر علفه على الشعير فقط..

- حاضر رئيس عرفاء.

ينطلق شتيوي على السدة الترابية الموازية للفرات ورائحة النهر تمتزج ببقايا رائحة الخبز الذي تخرجه مشتهاية من التنور تسبب له الدوار في الرأس والمغص في المعدة..

لا يطول انتظار رئيس العرفاء، شتيوي يخب على المحروس سعد عائدا إليه، وجهه فرحة غامضة، يتناول رئيس العرفاء شكيمة الحصان منه، يعتليه في أبهة حذرة.. حوافره تترك على الأرض الترابية آثارا عميقة.

يجري شتيوي إلى دوابه، تبتعد عن مرعاها إلى مكائن الحفر، يمنّي النفس: جاءك الفرج شتيوي.. أضرب اليوم بالخمسة عسى تعوّض الأيام الفائتة والآتية.. يعيد الدواب إلى الأرض المعشوشبة المحيطة بيت الحكومة، يفترش ظل شجرة التوت الضخمة، يغرق في أحلامه المدوخة مع الجني الأسمر واهب الولائم مالك خاتم الفص المثلث المسحور، راحلا مع نظرة مشتهاية المحذرة المخدرة إلى قرية يزرع معها الأرض، ينتظر رجعة الشرطي رئيس العرفاء مع نبأ المصادقة على الوليمة التأريخية المنتظرة، ماذا يعمل كي ينسى همومه.. يتفرغ إلى هوى يأخذه مع حبيبة الروح المحروسة مشتهاية بعيدا..

يناديه الحاج مدير الناحية من حافة ظل باب بيت الحكومة:

– شتيوي.. الكرسي!

يقفز شتيوي متذكرا كرسي الطوي الأخضر مثل أحلامه المقفلة، مدير الناحية يحمله معه في السيارة أينما يذهب، يهرع

إليها يخرجه من مقعدها الخلفي، يفتحه يقدمه للحاج محاولا نصبه في المكان المناسب لجلسة ملوكية. الحاج يلاطفه:

- تشكر صيفي.. خدمتك الجبارة تستحق جائزة.. قولك نأخذك اليوم إلى قلعة البطي تأكل أكل سباع معنا في الوليمة؟

شتيوي يرتبك، جائزة يسمعها جنازة.. أكل سباع.. تأكلك سباع.. البطي أو المطي يقول الحاج.. عنده قلعة فوقها.. سبحان مغير الأحوال.. يتغلب على سوء الفهم والتلعثم:

- ينعم الله عليكم حاج.. ينعم الله.. بس يا ريت تقنع مهيوب ذياب يعطيني بنته!

الحاج مشغول بهمومه لا يسمعه.. يقول:

- أكيد.. أكيد..

يفرح شتيوي، مشتهاية في العب، كلمة الحاج ماشية، صك محترم، لا يحتاج التأكد من معنى.. أكيد.. أكيد.. أي معنى آخر لها غير اقناع ذياب العنيد.. سوف يأمره نعم.. الحاج يأمر لا يقنع..

عند باب بيت الحكومة يظهر الشرطي رئيس العرفاء، في نور الشمس الباهر يترجل عن الحصان في صعوبة، على وجهه إمارات الجد والمجد والخطورة، النظرة العدوانية المتحفزة، يخرط العرق المتصبب عن جبهته بسبابة يمناه يصبه على الأرض في وقار:

- حجّي.. أرسل جاسم البطي معي رجلا يدعوكم رسميا إلى الغداء.

عند الباب أعرابي متلاحق الأنفاس، دشداشة زرقاء، كوفية رأسه تغطي جزءا من وجهه، يبتسم متخوفا عند رؤية مدير الناحية، يفصح مترددا:

- حجّي.. شيخ جاسم يدعوكم أنتم وعمال الحفر إلى الغداء عنده اليوم.

الحاج مدير الناحية كأنه لا يعلم عن الدعوة شيئا:

- بسيطة.. بسيطة.. نأتي بعد آذان الظهر بساعة أو أكثر قليلا.

يؤكد الأعرابي:

- أهلا مرحبا..

وينسحب إلى الخارج يذهب إلى الحفارات والمدرجات، شغالة هناك في شق الجدول الجديد، سحب التراب متصاعدة، فوضى العمال غادين رائحين مؤنسة، ضوء الشمس النحاسي الساطع تعكسه الآلات يشوي الوجوه.. يستبيح خفايا.. يتوقف الأعرابي أمام العمال يصيح:

- يا جماعة.. الشيخ جاسم يدعو عشاق الولائم إلى قلعته اليوم..

شتيوي يفرح يحزن، لعل الوليمة يرتبها الحاج معهم لمناسبة خطوبة مشتهاية له، هم يخفون ذلك مفاجأة له، ما أطيب هؤلاء الناس، ألم يهده مهندس إحسان صاية والده المرحوم، صحيح بعد رحيله لا يرتديها ابنه الأفندي قال إحسان، الخير عميم، لكن تعميم دعوة الوليمة على العمّالة يفوِّت عليه فرصة حضورها وحده مع الصفوة، مع مدير الناحية، عليه نسيان جوعه، التفكير في أقواله حين يجمعه الحاج مع والدها ذياب حول الوليمة، يبتعد عن بيت الحكومة إلى مكانه تحت شجرة التوت يفكر هناك، يتمدد على الأرض المعشوشبة، ينتظر حضور القائمقام بدء الوليمة تقرير مصيره..

تقترب الشمس إلى سمت الرأس، يتهيأ الحاج مدير الناحية للصلاة في الحجرة الخلفية قرب بندقية الصيد والخراطيش المعلقة بالجدار. بعد حين يبدأ شتيوي يتعب من التفكير بالمنتَظر، بما سوف يقال ويُقدم في الوليمة، ربما أسوة بعمال الحفر والسائقين المنهمكين في شق الجدول الجديد هناك. مع الوقت تصير الوليمة عقبة ضروري تجاوزها، ليستعيد وجوده طبيعيا، لمواصلة الحضور والشغل في صفاء ذهن.

شتيوي لا يدري لماذا يقارن حاله مع حال الدواب المحلوبة كل يوم، تارة أخرى يتطلع إلى عمال الحفر يعود إلى التفكير في

الوليمة المرتقبة.. أخيرا تظهر سيارة القائمقام.. تتهادى على السدة الترابية موازاة النهر..

يحتفي الحاج مدير الناحية بالقائمقام، يقدم له كرسيه الأخضر الذي لا يرتضي مسه من أحد غير شتيوي حين ينقله من السيارة، يتكلمون كثيرا في كل شيء، إلاّ في دعوة الحاج له إلى الوليمة، في توسطه طلب يد مشتهاية، سر مصون، ينهضون، يذهبون، يتجولون قرب مشروع الحفر، المكائن تسكت هريرها، يركبون سياراتهم يذهبون إلى قلعة جاسم البطي..

الحاج ينسى أو لا ينسى دعوته شتيوي.. لا يدري.. لا بأس، صفوة معه تسلبه جل اهتمامه، لا يأخذه معه إلى الوليمة كما وعد.. لا بأس، أكيد ينتظره هناك في القلعة، يستدرك الارتباك حتما بعد حين.. يعدل الحال..

شتيوي يتناسى السر تناسيه وليمة الجني خادم خاتم الفص المثلث المسحور المنقور، يتأثر شتيوي بادئ الأمر من تعقيدات خدمة الأكابر، إنما هو يشتغل مع نعاج محترسة.. مَن هو لحاج معه ذئاب مفترسة، يترك مع الدواب صبيا من الجوار، ينحشر مع العمال على سيارة حمل في صدرها مهندس إحسان، يذهب مع الذاهبين إلى القلعة، يغنون تحت شمس

قائظة مبهرة: يا ليل حيرنا جمالك.. وآخ يا غالي رخصنا دلالك..

سلام عليكم... عليكم السلام... الله أبو الخير.. سلام عليكم.. تحيات وأحسن منها تتساقط زخة عاتية على الجالسين والواقفين في المضيف، والجالسون والواقفون كثر لا يكاد الجالس في جانب من المضيف يرى المقابل على الجانب الآخر، كثرة الأبدان الداخلة الخارجة خير، البناء مستطيل كبير مسقوف حصران وطابوق وجذوع نخيل، عامر التخوت مرصوفة إلى الجدار مقابل بوابة الدخول، الوسط مفروش أبسطة تقسم فسحة المضيف مستطيلات تحفظ تلك التخوت في صدارة المكان، مدير الناحية والقالمقام والمرافقون ملوك يرتاحون عليها، التخوت المجاورة وأبسطة الأرض يحتلها مساحو الأراضي وعمال الحفر وفلاحو آل البطي، يحدقون في وجوه الاقندية الجالسين أمامهم متسائلين عما يوصل إلى ذلك الجاه، انتظار الوليمة ينسيهم باقي التساؤلات.. لا رد من وجه على ما هو عابر أو آت.. جاسم البطي وسط المضيف في دشداشة بيضاء، على رأسه عرقجين حجازي، يرحب بالقادمين:

- يا أهلا ومرحبا.. كيف حال الشغل في المشروع حاج؟..

الحاج هادئ راسخ.. يفيد من غير تعجل على عادته:

- في خير والحمد لله.. نسأل مهندس إحسان عنه..

مهندس إحسان متضايق من شيء.. من أشياء.. يرد في لا مبالاة:

- عراقيل نذللها.. إدارة نجددها.. للمشروع فائدة عظيمة عند انتهائه..

يعقب البطي مناورا مدير الناحية حول الفائدة العظيمة:

- الفائدة العظيمة حاج تكمل مع إجازة نصب ماكنة الضخ كما وعدت.

وينادي أصحابه المنشغلين بتوزيع اللبن والوسائد على الضيوف:

- تعال هنا قدم اللبن.. انت اذهب إلى هناك قدمه لرئيس العرفاء.

ويرفع صوته يستفسر من الشرطي في أبهة:

- وكيف حال المحروس سعد رئيس عرفائنا..

لا يجد رئيس العرفاء فرصة أحسن للحديث عنه في ذلك المحفل المهيب، يضمه والقائمقام والحاج صفوة محترمة، مثلث له ما يقرب من التسعين مستمعا حوله، حتى أنه قبل إتمام البطي استفساره ينخرط في مديح بنبرة مكتفٍ قادر غير مهتم كثيرا بتفاصيل أي موضوع:

- مع الأسف حصل المحروس سعد على الترد كلاص.. أبوه قرندل حصل دائما على الفص كلاص في السباق..

يضحك الحاج يجد في حديث الشرطي فرصة مناسبة لملاطفة القائمقام:

- حقيقة كان قرندل حصانا جيدا يحصل على الفص كلاص كما يقول رئيس العرفاء والفص كلاص بتصوري تعني الدرجة الاولى الفيرست كلاس بالانكليزي.. كذلك الترد كلاص.. تعني الدرجة الثالثة.

لا يبتسم القائمقام.. لا يرد.. رئيس العرفاء يثني على كلام مدير الناحية:

- أكيد كلام حضرتك.. قرندل وضع صورته مصور فرنجة مشهور في متحف أو جريدة لا أذكر تماما.. اسمه يبدأ مسيو مستر لا أذكر تماما!

مهندس إحسان يناكف رئيس العرفاء أحيانا، تلك المرة يلاطفه:

- هامستر تقصد ربما؟ هو معروف حتى عند الصغار هناك..

يصوب رئيس العرفاء سبابته وإبهامه نحوه مثل مسدس ضاما بقية يمناه:

- هو.. هو.. معلوم.. ها.. مستر.. ها ها شلون حاله وقرندل يخطر!

يضجر الجالسون من الكلام الأجنبي يملون الانتظار تكف وجوههم عن إخفاء رغبتهم في ظهور صينية الطعام، ذياب السلية يشمر عن ساعديه استعدادا للغسل، شتيوي لا يختلف عنهم في ذلك منتبه في آن لما قد يقوله الحاج مدير الناحية عن أمر طلبه ابنة السلية، وهذا الألم لا يكف يعتصر بطنه.. والدوار يذرذر في رأسه طائرة علي كوبتر..

أخيرا تحضر أباريق الغسل وأوانيه..

غسل الأيدي يبدأ من القالمقام مرورا بمدير الناحية إلى الآخرين، الجميع في الإنتظار، الأباريق تدور عليهم.. ينتهون من ذلك.. تبدأ مرحلة أخرى من الإنتظار.. يكف المتحدثون عن الحديث، يتنحنحون، يبتلعون ريقهم في صمت يكشف خوافي النفوس، لا.. غير صحيح لو يطلب شتيوي التوسط من مهندس إحسان بدل الحاج، محتمل يطلب مشتهاية لنفسه زوجة ثانية، أهل الولاية لا يؤتمنون تماما، تدور العيون في المحاجر باحثة عن نهاية، زحمة الأجساد تتحرك في اضطراب عند البوابة، صواني الطعام تظهر.. حول كل صينية أربعة رجال يحملونها من الجوانب، ثلاث صوان مفعمة بالرز يعلوها لحم الخروف المسلوق محمولة إلى الجالسين على الأبسطة، أربعة رجال غيرهم يتعاونون على حمل منضدة مغطاة بأطباق الرز والمرق والدجاج المشوي إلى الجالسين على التخوت..

ترتجف شفتا شتيوي حين يرى أكوام اللحم المنطرحة على تلال الرز، تلاقي عيناه لحظة عيني الحاج مدير الناحية على مبعدة، يبتسم الحاج يحرك يده إشارة غامضة، حلّت الساعة، يفهم شتيوي ماذا هناك، يرتبك، ليس الوقت وقت كلام في طلب القرب من ابنة ذياب، يخشى أيضا أن يبعثه الحاج في مهمة طارئة، يقفز على أي حال يهرع إليه يحكمه الأمل، نعم، سوف يعلنها الحاج خطبة مدوية، يكشف السر، يمنحه الجائزة الموعودة، ينهض الجالسون على التخوت يتقدمهم القائمقام والحاج، يلتفون حول المنضدة، أخيرا يجد الحاج قربه شتيوي، الرجل يحدق في بلاهة. يسأله:

- ها شتيوي خيرا؟!

يرد شتيوي متلعثما:

- أمر.. خدمة.. رأيت يدك تشير لي حاج!

يفكر الحاج طويلا، يضحك متذكرا ذبابة تهشها يده عندما تلتقي العيون، يتذكر أيضا طيبة شتيوي، خدمته الطويلة له، يضع ذراعه على كتف شتيوي وهو الحاج المؤمن في تساوي العباد يقوده إلى منضدتهم:

- طلبتك أبا فلان لكي تأكل معنا.

لا ينسى دعوته له طبعا، لكن هل ينسى وعد الجائزة؟ هل ينسى.. "أكيد.. أكيد.." موافقته على طلب حبيبة الروح مشتهاية

له من أبيها العنيد؟ يهمل أو يؤجل رجاءه التوسط له عند ذياب السلية؟! شتيوي لا يبصر غير المنضدة والأطباق، يتذكر وليمة الجني الأسمر، لا يعود يشعر الدوار في رأسه، ولا الألم في بطنه، فقط يفكر لماذا تعود على الجوع ما دام الخير والخير كله هنا.. لماذا ذلك الفقر المدقع هناك، لماذا الغنى الفاحش حوله!

يناوله الحاج طبقا كبيرا مليئا رزا تكلله قطع ضخمة من اللحم:
- خذ.. كُل لأسبوع مقدما.. برحمة ربك تنسى كل المنغصات.

شتيوي يتساءل لماذا تعود على الجوع والخير كله هنا.. لا يرى شيئا غير عيني مشتهاية.. يراها في كل الأطباق.. لا يسمع صوتا.. لا يشم شيئا.. الحاج يهزه من ذراعه.. وجوه كثيرة تحدق فيه.. رجال يقفون عند المنضدة فوقه لا يأكلون... فقط يواصلون التحديق في وجهه.. هو يضحك.. يضحك كثيرا.. يضحك.. يضحك.. يرى الوجوه المحدقة فيه مهتزة لكثرة دموع تحبس رؤيته.. يضحك.. يضحك.. وجوه تزمجر خلال غلالة دموعه.. أحدهم يضغط ذراعيه.. يجره.. يبعدونه عن الصفوة.. عن المنضدة.. إنهم يطردونه..
و.. يكف عن الضحك..

خارج المضيف مهندس إحسان يغسل وجه شتيوي بماء.. يكلمه.. يطلب منه الهدوء.. يتركه شتيوي.. يبتعد عنه.. عن كل شيء.. يخطو ثقيلا على السدة الترابية المحاذية للفرات..

صامتا.. دهشا.. يتساءل كيف يحدث كل ذلك بتلك السرعة.. كيف ولماذا تهب عاصفة الضحك عليه.. كيف لا يتمكن السيطرة على حاله.. كان جائعا يجد أمامه كل أصناف الطعام المشتهاة.. ضحك... ضحك... بعده غير جائع.. لماذا كل ذلك الضحك؟..

ماذا سمعهم يقولون؟!

قال القائمقام.. هريسة... هستريا.. لا يدري.. قال مدير الناحية.. أخرجوه.. لا ينتبه إلى حاله إلاّ والمهندس يواسيه.. لو خُليت قُلبت.. فقط خارج المضيف يكف عن الضحك.. خارج القلعة يمشي مبتعدا عنهم..

مرزوءا خيبة يستمر شتيوي في هيامه محاذاة النهر.. يصير بعيدا جدا عنهم.. لا تهمه وساطة.. لا تهمه وليمة.. لا يهمه جوع.. ولا أي وعد من أي مخلوق.. أو أي رعد من أي سماء.. حتى اسم محبوبته مشتهاية يضيع بين الأسماء.. لا يهمه شيء تماما.. غير أن يفهم حالته الجديدة.. يترسب في أعماقها.. يفكر ماذا سوف يعمل..

عليه البقاء حاضرا ثابتا في أي مكان.. أو تناسٍ يهدده فيه تلفٍ ونسيان!



▪ **خبر ٩**

البطلة

تستيقظ البنت الصغيرة تسب الذباب المتسلل إلى عينيها:

- ألعن صنمك.. خلّنا ننام!

تجر العباءة إلى كتفها، بردة أوائل الفجر والنداء المتكرر من الزقاق لا يدعاها تغفو، النور حولها لون الماء الراكد، تنهض إلى محجر السطح تهمس لمن في الزقاق:

- خيرا؟

يمسكان لجامي حصانيهما، يرفع أحد الرجلين رأسه نحوها، يزيح الكوفية البيضاء عن فمه يهيب بها يده تلوّح:

- يرحم أجدادكم اسرعوا.

تنهي تثاؤبها تقول مبتعدة عن المحجر المجصص شديد الخشونة:

- أم قدري مريضة.. روحوا إلى أم غايب.

يستغيث الرجل غريق همّه أسفل الزقاق:

- يا حبيببة اسمعي كلامنا.. هذي لا أول لا آخر مرة نتعنى لكم.

تعود البنت الصغيرة تضطجع، تعدل وضع غطوة الصوف الخفيفة على ظهر العجوز الراقدة قربها. لا تغلق عينيها، تتأمل قلب النخلة المرتفعة من ساحة البيت، الظلام لما يزل يعشش بين السعفات الساكنة والحمامات منزوية على نفسها، لم تستيقظ مثلها، يمكن النوم ساعة أخرى أو ساعتين.. لو يمضي مضروب القلب ورفيقه هناك..

- أم قدري!.. أم قد..

تزيح العباءة، تقصد المحجر المطل على الزقاق، تشير إلى سطوح البيوت شديدة القرب منها قائلة في حدة:

- ألعن صنمك شتيوي.. راح الجيران يقعدون!

يلوّح رجل الكوفية البيضاء يده، صوته متضرع، وجهه متوسل:

- رحمة على أجدادكم.. عارف حال أم قدري.. لكن مضطر.. رحت إلى أم غايب لقيتها طالعة من أمس.

الحصانان يتحركان في ملل من الوقوف في حيز الزقاق الضيق، الرجل الآخر يمسك لجاميهما ينتظر صامتا. الاثنان يبدوان قزمين تحت نظرة البنت العمودية، تتثاءب، تسقط بصقة بيضاء..

خلفها العجوز جافة الصوت بطيئة الكلمات تسألها:

- مَن هناك؟

تلتفت البنت الصغيرة إليها.. ترد في حكمة ونكد:

- عشاق القهر.. نامى حبوبة ولا يهمك.

تكرر العجوز سؤالها في مكانها دون حركة. ترد البنت جزعة:

- بيت شتيوي.. جاء عرسهم يوم طهورنا!

تسعل العجوز حذرة، يستنجد الصوت الرجولي من قاع الزقاق:

- أم قدري ساعدينا يساعدك الله في الدنيا والآخرة..

تشير العجوز للبنت تأمرها الإيعاز للرجل لينتظر، تسخط البنت:

- حبوبة كيف تروحين وأنتِ وجعانة؟!

يصيح الرجل بها من أسفل الزقاق:

- اسكتى يا حبيبه.. واياي حصان يشيل ماء الصينية.

العجوز بصوتها الجاف المتأني توصي البنت الصغيرة:

- قولى له السيارة ضرورية.

وقبل أن تفتح البنت فمها يهتف الرجل من تحت:

- أين هي السيارة.. قولي أحضرها من جزيرة الواق واق..

تقتعد العجوز في هدوء على حصيرتها، تتطلع إلى النجمات المتلامعة القليلة في غبش السماء. تحرك رأسها تقول:

- نادي سليم السائق.

تنتقل البنت الصغيرة سريعة الخطوات على طابوق السطح المربع الأصفر من المحجر المطل على الزقاق إلى المحجر الآخر المشرف على بيت الجيران، تستند على جصه اليابس الخشن تشرئب قصد تنادي على سليم السائق، لكنها تسحب رأسها فجأة كأنها تُلدغ.. مغمضة تتمتم:

- استغفر الله.. استغفر الله.. استغفر..

تنتهرها العجوز:

- ألف مرة أقول لا تمدي رأسك عليهم.. نادي عليه من خلف المحجر. لحظات تفتح البنت الصغيرة عينيها بطيئا مترددة:

- أناديه؟

- قولى له ننتظرك على الشارع العام.

تصيح البنت الصغيرة كاتمة صوتها دون التفات للجيران:

- يا سليم.. تقول حبوبتى...

يتناهى صوت الرجل من قاع الزقاق إلى السطح متوسلا ثانية:

- أم قدري.. يرحم والديك خفّي يدك.

العجوز تنهض في إعياء.. تأمر البنت:

- خذي الجنطة انتظرينى قرب الباب.

تهرع البنت الصغيرة إليها:

- الأول خليني أنزل واياك الدرج..

تتأوه العجوز، تشد رأسها بفوطتها السوداء، تتمتم:

- غير ضروري.

البنت الصغيرة تسندها على كتفها الناعم تصعد نظرة متضرعة إليها:

- حبوبة.. خذي الحبّة المثلثة قبل ما تنزلين.

تحرك العجوز رأسها موافقة مستندة على شراعة الباب المفضي إلى مهبط السلم المظلم، تجري البنت نحو الوسادة على الحصير، تتناول من تحتها قنينة زجاجية صغيرة، تفتحها تخرج قرصا مثلثا شاحبا بلون وجه محتضر، تحملها إلى العجوز، ثم تجلب لها من (المشربه) على ملتقى المحجرين كاسة ماء بارد. تبتلع العجوز القرص بلا ماء، تتكئ على كتف البنت تهبط معها درجات السلم. في الظلام تقول العجوز:

- رجعت بطني تلوينى.

الصغيرة تستعرض علمها.. علم امرأة ناضجة:

- حبوبة.. من البطيخ.

في ساحة البيت النور كامد، تتحرر العجوز من كتف البنت تقطع المسافة إلى الغرفة المقابلة خطواتها تنشط. تضع عباءتها الصوف السوداء على رأسها، تنتعل بابوجها الكربلائي اللامع.. تطلع.. تتبعها البنت الصغيرة تحمل يدها حقيبة تكاد تلامس الأرض.

يتلقاها رجل الكوفية البيضاء جزع الوجه، يشوهه الانتظار، يختطف يد العجوز المعروقة حين تعبر الدكة يضعها على شفته المتيبسة يقبلها عن حرقة، تجر العجوز يدها، تتبين طريقها في ظلام الزقاق عن مشقة حذرة من مياه آسنة. يسحب الرجلان الحصانين من لجاميهما يمضيان خلفها... تنصح البنت الصغيرة العجوز:

- حبوبة اقعدى على الرصيف.. يتأخر سليم السائق.

تقعد العجوز على الرصيف:

- روحوا قبلنا.. الله واياكم..

رجل الكوفية البيضاء مختنقا عَبرة لا يفلح في إخفائها:

- لا نتحرك حتى تطلعون أنتم أولا إلى الديرة.

الرجل الآخر يحذره بنظرة جانبية خفيض الصوت:

- اثبت شتيوي.. عيب عليك!

يحضر سليم السائق متعجلا يحمل "هندر" السيارة تحت ذراعه، يدخل دشداشته المقلمة بيديه في فتحة بنطلونه الخاكي العريض، يشد حزامه، يشخط نعليه بقدميه في طريقه إلى باص مستند بعجلتين جانبيتين على الرصيف الضيق مائلا على أرضية الشارع مثل كلب أجرب كبير.

أخيرا يجر الباص نفسه ثقيلا بطيئا.. تقول الصغيرة:

- حبوبة خذي غفوة حتى نصل..

العجوز تعد على أصابع يدها، تتمتم كلاما غير مفهوم.. تنطق:

- كل شيء له إرادة.

تتمدد على المقعد الخشبي الطويل في حوض الباص الوسط واضعة رأسها على فخذ البنت الصغيرة النحيل. بعد دقائق تزيح عن وجهها عباءة البنت الصغيرة - كانت قد غطتها بها - تسألها:

- تذكرين الحساب بالتمام؟

تبسط البنت كفها تعد على أصابعها بطيئا:

- الاول بيت سريع بعدهم بيت عبدالستار بعدهم شتيوي بعدهم بيت..

تقول العجوز:

- يكفي. عجبا حرمة شتيوي مستعجلة على غير الميعاد.

تكرر الصغيرة الحكيمة:

- عشاق قهر.. كل شيء له إرادة.

يعبر الباص جسر المدينة الكبير، يمضي متعثرا بالحفر على الطريق المحاذي للبساتين المظلمة، عبر زجاج النوافذ المغبش السماء ساكنة تماما.. خالية.. لا لون لها. تستغرب العجوز:

- عجبا.. الدنيا كأنها المغرب!

يتوقف الباص قرب أكواخ طينية على مبعدة من الشارع العام الضيق المتعرج، تتجمع نساء حائرات الوجوه أمام باب الباص، تفتحه البنت الصغيرة تهبط قافزة إلى الأرض، تمد يدها لتلقّي العجوز، تساعدها على النزول. تعيد العجوز عباءتها السوداء إلى رأسها متوقفة تلتقط الأنفاس، وتمضي مغالبة حالها مع البنت..

يلحق الرجل ذو الكوفية البيضاء بها عند مدخل الكوخ لاهثا، يحاول إسنادها على يده، تتجاهله، تحني قامتها القصيرة تدلف إلى الداخل، تخرج رأسها من خلف الستارة الثقيلة تأمرهم:

- لا تقربوا إلى هنا.

وتترك الستارة تنسحب على المدخل. تقول للصغيرة:

- اشعلي الشموع.

في ضوئها المرتعش امرأة على بساط عتيق، ممددة، وجهها متشنج، محتقن، متلامع عرقا. تسحب العجوز عود السعف الأخضر من فم المرأة باذلة جهدا، المرأة تكز على أسنانها قويا، تأمرها العجوز:

- صيحي يا علي.

أنفاس المرأة متلاحقة.. لا يصدر منها صوت.

العجوز تطل أخيرا إلى خارج الكوخ، تطلب من امرأتين عونهما، يدخلان تحملان المرأة كما تشير العجوز، تجلساها مقابل دولاب خشبى واطىء تلونه صبغة الجوهر بلون الدم في أماكن مختلفة. ترفع العجوز ثوب المرأة إلى الكتفين، تقعد خلفها تهيب بها:

- نادي يا علي.

المرأة تئن: آ آ آ.. آآ...

تمسد العجوز خاصرة المرأة، بطنها، تشجعها:

- صيحى يا علي!

تطلق المرأة صرخة ألم شديدة..

- على بختك.. يا علي.. ى.. ى.. ى !..

تنحسر ستارة المدخل يظهر وجه شتيوي ملفعا بالكوفية البيضاء شاحبا مع النور المتهرب إلى الداخل، عجيزة المرأة

السمراء كبيرة عارية أمامه، تصيح العجوز به ليختفي. يحرر الستارة من يده تفصله عنهن، لا يدري ما الذي يفعلنه هناك!

تتنهد العجوز عن ألم، تشير للمرأتين بعينيها ويدها إلى البساط، تعيدانها إلى مكانها الأول، تقفان عند رأسها. العجوز مغلقة العينين تمسد بطن المرأة نزلا إلى أسفل مرارا.. المرأة تواصل الصياح..

البنت الصغيرة تمسح العرق الغزير عن جبهة العجوز بقطعة قماش..

- بنتي صيحي يا على..

يد العجور تمتد إلى تحت.. تتلمس المدخل اللزج، تدخل كفها في يسر تتحسس في أناة.. تهمهم:

- الله ومصلي على محمد.. ينزل..

تتغلغل يدها.. هنا.. هناك.. لا اله الا الله!.. كفها تحتضن رأسا صغيرة، تحاول دفعه جانبا، يقاوم، تضع إصبعين على كتفه الناعم، تدفعه إلى أعلى قليلا.. لكنه يقاوم أيضا...

- آ آ آ...

تحمل البنت الصغيرة وسادة صوف عالية تضعها تحت العجوز:

- حبوبة.. اقعدي..

تتمتم العجوز في إعياء:

- خليها تحت ركبتي.

تمسح البنت جبهة العجوز النازفة عرقا تقول:

- حبوبة تحتاجين راحة.. لا..

لا تعبأ العجوز.. تواصل محاولة تدويره بيدها.. هنا.. هناك.. يقاوم كل مرة، لا يمنح غير فرصة إمساك رأسه، لا يمكن جره إلى الخارج إلاّ مخنوقا..

- آ آ آ...

- عجيب أمر هذا اللوتي!

تقول البنت الصغيرة هلعة:

- حبوبة.. خير ان شاء الله

العجوز مسبلة جفنيها صريعة دوار تتساءل:

- الشموع تضوي!

- بلى حبوبة!

تعينها البنت قبيل سقوطها، تجلسها على وسادة الصوف، تعطيها منشفة تمسح يدها من الدم، تضيف:

- حبوبة يدي مغسولة.. آخذ مكانك؟

تتحرك شفتا العجوز كلاما غير مفهوم، البنت تحل عن رأس العجوز فوطتها السوداء الخشنة.. تسمع منها أخيرا.. أشهد.. أن... لا..

يتناءى صوتها.. يختفي.. يتلاشى.. يرتخي جسدها بين يدي البنت الصغيرة فتولول:

- حبوبة والعمل؟!

العجوز مغمضة العينين.. غائبة تماما..

تخرج البنت الصغيرة من الكوخ باكية:

- حبوبتي! حبوبتي!

يتلقاها شتيوي فزعا، يتركها يهرع إلى الداخل ملتاثا، يتسمر عند المدخل مصعوقا..

رأس صغير بارز من بين الفخذين، محتقن الوجه أزرق، يحيطه شعر العانة أسود كثيفا، عيناه نصف مفتوحتين متجهتان نحو جسد العجوز المتهاوي في الظلام إلى حائط الكوخ الطيني.. بلا قدرة.. بلا حول..

يستدير الرجل على عقبيه، يتهاوى خارج الكوخ، يتناول حفنة تراب من الأرض يهيلها على رأسه أمام الحضور. عيناه عينا جاموس هائج.. يصيح..

- يا أهل الرحم مشتشفى!

تشق صرخته سكون الفضاء. السائق سليم يجري إليه.. تشفى.. تشفى.. ليش مش تشفى.. ليش هالفال.. تتبعه البنت الصغيرة باكية، هدير الباص عال بعيدا.. يصيح السائق به:

- زلمة لأي غرض معنا السيارة، كلها خمس دقائق إلى مستشفى الولاية.

يهيل شتيوي حفنة تراب أخرى على رأسه الحاسر:

- ويلي مشتهاية آخذك من والدك مقابل عجل وأمه ياخذك الموت منّي شربة ماء.. شربة دم.. عدلك يا رب العالمين!

الكوفية تتدلى حول رقبته جسدا يقتله خذلان..

يتعالى صراخ داخل الكوخ..

جمع يد البنت الصغيرة يضرب صدرها تصيح:

- حبوبتي.. حبوبتي.. راحت خلتني وحدي. حبوبتي.. حبوبتي!

امرأة تطلع من الكوخ عجلى تصيح:

- كيف نحملها؟

تلوح يد السائق نافد الصبر:

- خلوا غطوة عليها.. نحملها أنا ورجلها على البساط إلى الباص!

يتضاءل الصياح داخل الكوخ. يدخلون عليها..

بين دهشة وخوف يستقبلهم صراخ صغير ناغم متصل.. بين فخذي المرأة تدفر قدماه الغطاء.. يحرك رأسه متلويا ضجرا من انتظار.. من وحدة..

ستارة المدخل تفسح دربا للريح، نور الفجر يبدد ظلمة ليل منهار.. يتساءل شتيوي مأخوذا:

– ولد؟

– لك بلبوله در نفيس!

– معافى؟

والسائق سليم يحرك رأسه مؤكدا:

– المهم جاء إلى الدنيا.. عن عافيته تسأل.. اسأل أولا عن عافية الكبار.. عن براغيهم الصغيرة... هذا العتوي الخطير ماذا تسميه؟

– أكيد على اسم المهندس إحسان.. حسّان شتيوي.. عساه يتهندس.. لا يخاف في حياته من ليلة هِندس..

تتراجع الستارة مع الريح.. شراع سفينة مبحرة نحو مجهول.



القسم الثاني

عشاق المنافي

▪ **خبر ١٠**

منها.. إليها

الرجل الآخر يقول:

– ما فائدة الحفر شتيوي.. قبلك حفر كثيرون ولا فائدة.

شتيوي ساكت، يحفر في دائرة التراب الاصفر السقيم. يؤكد الرجل الآخر:

– والحكومة بحكامها وأحكامها عاجزة كيف المساكين عباد الله!

يغرس شتيوي المسحاة في باطن الأرض متفحصا التراب السقيم، صوته يشبه حفيف سعف نخيل في واحات ظليلة بعيدة:

– والرأي؟.. نلطم الخدود مثل النسوان.. نبقى نترحل من ديرة لديرة؟!

الرجل الآخر جادا.. من كل عقله.. رأسه مائل نحو عمق الحفرة:

– لم لا.. هيا نعبر الحدود.. إلى هناك..

ويرسل بصره بعيدا إلى حافة الأفق.. يتنهد:

- هناك كل شيء أخضر..

على شفتيه البيضاوين طيف ابتسامة باهت، فتحتا عينيه تضيقان:

- صدقني كل شيء أخضر حتى عيون البنات.

يرفع شتيوي رأسه، وجهه الأسمر المتغضن الجاف رغم الجهد الشديد يعكس نور شمس آخذة في الغروب، في عينيه عتمة القرب اليابسة:

- نصير هناك يا رجل غرباء يتامى.

- الفقير بلا سند غريب يتيم في كل مكان..

- سندي رب العالمين يأخذ حرمتي يرميني إلى ديرة رمل عداوة أو امتحان!

يقبض الرجل الآخر على حفنة من التراب المتراكم عند حافة الحفرة، يفتح قبضته تتطاير مع الريح الهابة ذرات ذرات، يؤكد:

- أجدادنا عشاق ترحال تدري.. لم يكن لهم مكان ثابت.. خلقنا متنقلين مثل ذرات هذا التراب..

يغرس شتيوي المسحاة في التراب، ما زال أصفر عقيما، يستمر في الحفر:

- ولدي حسان يحتاجني أنا.. أنت روّح.. ارحل.. تسلم من عطش الطريق قدامك لصوص البادية.

ينهض الرجل الآخر يتطلع إلى الغروب الدامي:
- الرجال واحدهم يأكل الآخر، ينوون قتل عامل المضخة. الرحيل نجاة.

صوت شتيوي من الحفرة يقوى مع غرس المسحاة في باطن الأرض:
- المهم معرفة مطاف الترحال.

يبتعد الرجل، يصعد المرتفع الترابي، يقف جوار خيمة سوداء أعلى الرابية، الأرض مد البصر، الريح ثقيلة تخفق أطراف دشداشته الزرقاء حائلة اللون بفعل الشمس راية معركة، ينادي أعلى صوته:
- شتيوي لا تتعب حالك.. أهلناعشاق فجيعة.. واحدهم يقتل الآخر.. لا مَهرَب.. أراها تركض إلينا أسرع من الريح.

يخرج شتيوي رأسه من دائرة الحفرة يذمه:
- يا أجرب يا ملعون يا غراب الشؤم.. الفجيعة منك بك..

يقطع صيحته.. بعيدا شبح يركض نحوهم، الريح تنقل عنه استغاثة أو بشرى غريبة ملتاثة:
- مطر... مطر..

يهبط الرجل من المرتفع الترابي يكاد يسقط لتعثره بأذيال دشداشته، يتبين ملامح الشبح القادم، يتوقف عند الحفرة يهذي:

- سبحان الله.. سبحانه.. مطر في الصيف القائظ.. مطر في هذا الهلاك!

تتضح صيحة الشبح إستغاثة ملتاعة.. ينتهره شتيوي:

- ما قضيتك حسان.. ملدوغ.. مدبوغ.. راكض ركض الغزال!

صبي منفوش الشعر، دشداشته رثة ممزقة بلا لون، أنفاسه متلاحقة كمُطارد يتوقف قربهما أخيرا:

- مات المرياع.

يمسك الرجل ذراع الصبي:

- شئ أصابك.. تجن مثل الآخرين... وما قضية المطر؟

يترك شتيوي المسحاة تسقط يمد يده للرجل يتناولها يساعده على الخروج من الحفرة، يجلس على أكوام التراب يحدق يين قدميه في أعماق التراب الأصفر السقيم، يتكرر حفيف سعف النخيل في الواحات الظليلة البعيدة:

- مات المرياع؟!

يؤكد الصبي مستسلما للتعب والعجب:

- مات.

يسأله شتيوي معذبا:

- وليدي.. والقطيع؟

يرد الصبي حسان:

- صار يتبع الحمار.

يتساءل شتيوي غير مصدق:

- يتبع الحمار!

الصبي حسان من خلال أنفاسه المتلاحقة:

- وركب العم مطر الحمار قال آخذ القطيع إلى هناك.. إلى أم الوز.

يهمهم الرجل جوارهما:

- يجن الجميع رسميا تحريريا.. لا نصدق حكاية نعبر الحدود تأتينا أم الوز!

نظرة شتيوي تتيه بين ذرات التراب المتراكمة حوله.. ينعي حاله:

- أذكر المرياع عندما ولد قبل أعوام، أخذته من أمه، أرضعته لبن الحمار، من يومها يتبع الحمار أينما يدب والقطيع يتبعه وراءه.. مرياع بحق، قرونه خناجر.. خطمه خطم ثور يرفع الأرض بقرنيه..

أنفاس الصبي متلاحقة، وجهه صخرة جافة رغم الجري في الحر الشديد:

- مطر.. ركب الحمار قال آخذ القطيع إلى جنة.

والرجل الآخر يرنو إلى السماء في خيبة يخوّض في حلم رغم اليقظة:

- آخ.. المطر.. المطر..

يغرز شتيوي قدمه سمراء عارية في التراب العقيم، والصبي ابنه يتحسر:

- المطر نسانا.. هجر أرضنا وسمانا..

الرجل الآخر يراقب قرص الشمس يلامس حافة أفق أحمر ليوم دام:

- والجنة أين هي الجنة شتيوي التي يريدها أخوك.. جن مع إبنك حسان!

يرفع الصبي ذراعه يشير نحو المشرق:

- يقول مطر.. هناك أم الوز غدرانها بحور واسعة.. طيورها أسرابها شاسعة.

الرجل الآخر يلتفت إلى المشرق، يحرك رأسه عالما فاهما، يرى في خياله تلك الغدران الواسعة كالبحور.. الطيور المحلقة في أجوائها بلا عدد:

- ذلك في قديم الزمان.. اليوم جفاف.. تقحل.. يتغرب مَن يتغرب.. نتبعثر في بلاد الله النائية قبضة رمل في ريح عاتية.. العاقل يسلم بنفسه.

- العاقل أو العاقول؟

ويتطلع شتيوي في صمت إليه، إلى قرص شمس آخذ في زوال وراء الأفق.

• • •

الأنوار تذوب في غسق رمادي كاب.. تظهر نجيمات سماء عقيمة لا تحبل بالسحب.. يقول الصبي حسان:

- تعبت من المشي.

شتيوي في سيره يستطلع مشارف خرائب غائمة:

- وليدي الأفضل لو بقيت تحفر هناك.

- دائرة الحفر في العمق مثلث صغير يصير نقطة.. يتوجب تغيير مكان الحفر لو بقى ماء ونجاة على هذي الأرض..

ويسرع الصبي خلف أبيه شتيوي يرفع رأسه يسأله:

- بويه.. صحيح ما يقوله مطر عن أم الوز؟

شتيوي صامت لا يرد.. يتحسر:

- المهم نسترجع غنماتنا.. لماذا تركتم المرياع يموت؟

الصبي يلهث متسارع الخطوات:

- كل شيء يبس.. الرجال عند المضخة يقولون نموت كلنا اذا لا تصل سيارة الحكومة الليلة.. هناك مَن يعطل وصولها إلينا..

لشتيوي ذات النبرة المتحسرة يكرر ما كان سأل عنه:

- بقية القطعان كيف حالها؟

والصبي خلال لهاثه يكرر أجوبته:

- مات الكثير من الخراف قبل اللحاق لذبحها.

يلتفت شتيوي نحوه يستفسر متخوفا:

- قطيعنا أيضا؟

يسعل الصبي.. يكاد يسقط من الإعياء:

- المرياع فقط.. أراد بقر بطن الحمار قبل موته!

صمت قاحل يترامى فيهم حولهم كالأرض التي يمشون عليها، كالسماء التي يدبون تحتها، هناك أشباح خرائب متناثرة بلا حدود، مطموسة المعالم في ظلمة كدرة تخفي الكثير من المخاوف والأوهام، كل شيء ساكن ينبئ عن فجيعة.. شتيوي يسأل ابنه حسان:

- ماذا ترى هناك.. العمش يعمي عيوني..

والصبي يقول:

- الخبال يمس الجميع.. الخراف تأكل حتى الأعشاب السامة.

في الظلمة بقع سوداء حالكة كثيرة، حشد رجال متجمع حول عمود طويل مرتفع فوق رؤوسهم، تتضح معالم تلك البقع السوداء الحالكة لشتيوي وابنه جثث خراف ملقاة.. مستلقية في انكفاءة أبدية على عطشها.. يهمهم شتيوي:

– يا ساتر.. أين تركت عمك مطر والقطيع؟

يشير الصبي إلى الحشد:

– هناك وسطهم.. يتصايح معهم منذ المغرب.

يسرع شتيوي.. يتبعه الصبي مجرجرا ساقيه..

من الأرض المجدبة يتصاعد غبار قاتم أسود هاربا من الأرض نحو السماء، قطعان خراف تزحف من كل صوب تلتقي في نقطة واحدة، هناك حيث يجتمع الرجال حول العمود المرتفع في دعاء ضارع متوسل، مئات الخراف تزحف في تقاطر وحشي مخيف.. نحو نقطة واحدة.. المضخة!

يصيح مطر قرب عمودها المصوب ماسورة طبنجة ضخمة نحو الأعالي:

– يا ناس يا عالم متى تفهون.. هناك أم الوز.. كل شيء هناك.. غدران وسع البحر، طيور بلا حصر، أرض معشبة للجميع.. لماذا لا تصدقوني؟!

ترتفع صيحة أخرى من الحشد أكثر حدة:

- يكفي.. غدرانك سراب نموت قبل الوصول إليه.

يحشر شتيوي نفسه بين أبدان الرجال، يتململ الحشد، ابنه يتبعه متشبثا بدشداشته، يظهر مطر فتيا كينبوع في عز الظهيرة، يقول في حيوية:

- صدقوني مررت بها.. رأيتها بعيني.. رعت فيها أغنامي.. شربت منها.. أم الوز .. فيها الغدران واسعة.. الأعشاب نامية..

يقاطعه شاب غير مبال:

- إذهب وحدك إلى حلمك مثلث برمودة.. كفّ عنا تلك المودة..

- أي منا بمفرده يهزمه قطاع الطرق.. نكون معا أو لا بقاء لواحد منا.

يسود الصمت.. هذا مطر يخطب في مسجد لا آذان فيه.. لا جدران.. حيث تهبط الظلمة.. حيث يسكت العقلاء.. حيث تضيع الحقيقة.. يعلو بهتان.

ينزل الليل على الجميع، ريح باردة، لا جدوى من كلام لا يخلق معجزة في كارثة، شفاه متيبسة في بياض السراب، ألسن خشنة جافة ظهور الضباء المنتشرة في كل مكان، لا يبالي الرجال، يحذرهم مطر:

- لا تريدون الذهاب إلى الأعالي معي لا تفعلون شيئا للبقاء.. هلاككم فيكم.

صمت الرجال متوتر يخفي الكثير من المخاوف والتحذيرات، مطر يعب هواء البادية العذب الهاب فوق الرؤوس قادما من ذلك المكان المعشوشب.. أم الوز.. آخر البشارة يهبهم.. لا إشارة على قبول ما يقول:

- مَن يرى أم الوز يحبها إلى الأبد.. نجاتنا في ترك ربوعنا المتصحرة.. أروح وحدي.. أنتم تخسرون.

يعترض أحد الشيوخ:

- تعقل وليدي.. اللصوص والمهربون والمسلحون يملأون البادية في الأقل.

يتنحنح شتيوي يدخل حلبة النقاش متعبا معاتبا الجمع:

- لمطر حق في إختيار الارتحال.. لا تفعلون شيئا غير الإنتظار.. تستنفدون المخزون.. تتيبس الجلود.. لا تبارحون المضخة ولا هي تتنفس من جديد من صلوات ومهاترات!

يعلق الأعرابي الجالس على قاعدة الخزان منهكا:

- أحد رجالنا أرسلنا إلى المدينة للإخبار.. لا يرجع.. لا تحضر السيارة!

يشير شتيوي تجاه المضارب.. نبرته مهينة:

- الأرض أمامكم احفروا فيها.. انبشوها نبشا.. باطنها ماء لا نفط فقط!

يلتزم الرجال الصمت الغامض وسط الليل، يعقب أعرابي اليأس:

- لا حاصل حتى لو نحفر عشر قامات.

يؤكد شتيوي في إصرار وعناد:

- نحفر أكثر.. القضية حياتنا..

ومطر المرابط جوار عمود المضخة المتجه نحو السماء في دعاء أخرس:

- لا أمل بلا عمل، أرضكم تجف، الخير كل الخير هناك في أم الوز.. أعود مع عشبها لمن يبقى منكم يصدقني..

يرفع شتيوي صوته المجهد:

- لا تذهب يا مطر.. حدودنا نعرفها.. الحفر هو الرجاء.. علينا أرضنا.

ريح رخاء ترافق مطرا.. يبتعد عن الحشد.. أغنام تتبع حماره تختفي وسط الليل...

• • •

في الغبش.. يخطو طيف أحد الخراف على خط الأفق أمام المضارب، يتوقف، يلتفت إلى الخيام السوداء الساكنة، يتحرك نحوها.. خطوات يتوقف.. يلوي خطمه نحو الأفق الفضي..

يتساءل شتيوي مجاهدا فتح عينيه عسى يرى حسنا تلك النقطة السوداء المخوضة في حلمه الأبيض:

- ماذا ترون هناك.. عند حافة الأفق؟

يخرج من الخيمة القريبة رجل طويل في دشداشة بيضاء حائلة، النعاس في عينيه، صوته ناحل من قلة الإستعمال:

- ماذا أرى.. أرى خروفا آخر يجرجر إليته الضامرة هناك يشم رائحة الناس.

من عمق الحفرة يصيح الصبي حسان مستقويا مستهلكا آخر الأنفاس:

- أموت من النعاس.. تعب.. عطش.. حفر لا ينتهي..

لا يهتم شتيوي لاستغاثة ابنه، يباعد أجفانه يرى واضحا ماذا هناك، ينهض عن كومة التراب:

- ماذا يأتي به إلى خيامنا فعلا.. لعله..

يسكت شتيوي مواصلا التطلع إلى تلك النقطة السوداء.. تكدر صفاء الفجر الفضي.. الرجل الطويل ذو الدشداشة البيضاء الحائلة يعقب في نكد:

- لعله لعنة.. صلاة بلا توضؤ.. مَن يقبل!

ويمضي إلى ما وراء الخيام.. يرفع دشداشته خلفه.

تتراقص أمام الافق تلك النقطة السوداء.. شتيوي ينادي ابنه:

- حسان إطلع.. إلى هناك.. تبيَّن ماذا يستجد..

يصيح الصبي أسفل الحفرة:

- لا شيء يستجد في أي مكان.. غير موت بهائم.

يقول شتيوي:

- تلك إشارة..

تتحرك النقطة السوداء أمام الافق في اتجاه ثابت. يظهر رأس الصبي من حافة الحفرة، يتشبث بالحبل، نهايته الأخرى ملتفة حول وتد خشبي غائر في الأرض، منهكا يخرج من جيب دشداشته الجانبي الطويل حفنة تراب:

- أخيره بارد.. بارد يابس!

يضعه في يد شتيوي الجافة السمراء. الخروف الشارد هناك يجرجر نفسه بين الأعشاب البرية اليابسة يشمشم الأرض. الصبي واثقا:

- من غنماتنا!

يركض نحوه، صوت شتيوي يتلاشى خلفه بين أكوام التراب حول الحفرة:

- لكنها دبّت مع القطيع خلف مطر.. إلى جنته الموعودة..

الصبي هناك يمسك إلية الخروف.. يصيح:

- أخضر..

شتيوي لا يسمعه.. يعود الصبي راكضا.. يخبر خلال لهاثه:

- أخضر العلامة.. من غنماتنا!

يتساقط التراب بين أصابع شتيوي، ينهض متطلعا إلى الأفق والغيب:

- خلهم يسرجون الخيول الثلاثة.

يذهب الصبي إلى الخيام يخبرهم.. قرب صندوق مفضض ينطرح ينام..

بعد حين يصطحب أعرابيان ثلاثة جياد إلى شتيوي. أحدهما يلومه:

- ما دهاك.. تترك مطرا يعمل عملته الكافرة؟

- أمام الموت وانعدام الأمل ما العمل غير التسليم!

يركب شتيوي حصانا، يتجهون ثلاثتهم إلى المضخة.

حول المضخة والخزانات حفر الغدران القديمة الصغيرة جافة تماما، طيور الشهيبي الغبراء تجثم على سطوح الخزانات تحدق في تلك الحفر عيونها زجاجية لا أثر حياة فيها. صوت

شتيوي يتكسر مع اهتزاز الجواد تحته يشير ناحية الشرق حيث الأفق أغبث لون الفرات النيساني:

- إلى هناك..

آثار يتركها القطيع في الليل تتوالى إلى حيث لا يعلم أحد.. دعوى مطر أم الوز هناك.. لغدرانها زرقة السماء.. سلوى بلوى من يدري.. آخرون يؤكدون.. مجنون يريد أخذنا إلى هلاك.. وأن يعود خروف من القطيع ذلك مجهول حتما من مطر.. من غيره.. آثار القطيع تمتد.. تمتد.. إلى حيث لا يعلم.. لا يحلم أحد..

شتيوي يتساءل:

- عجبا يعود الخروف وحده؟!

يصمت الآخران. يتحسس أحدهما حزامه، يسوي خنجره على خصره. يعلق الآخر:

- لا شيء هناك غير متاهات البادية وحرس الحدود.

الخيول في لهاثها المتعب.. شتيوي يطرد هاجسا:

- ذرعنا البادية شبرا شبرا ابتعدنا عن الحدود يا مطر فلماذا جلب المتاعب!

شرقا تختلط الأرض مع السماء، أفق مضبب يحجب ميلاد شمس باهرة، أشياء أخرى هناك. أحد الأعرابيين صحبة

شتيوي يشير إلى موضع وردي بعيد متمخض عن فجر جديد، يحذره نظرته تحتضن مسافات البادية:

- آثارهم متجهة إلى هناك.. ترك مطر يرحل وحده جنون آخر..

الآخر في رهبة:

- لنعد قبل أن تشوينا الشمس.. خيامنا بعيدة.. ظلالنا مديدة..

شتيوي لا يزال يكرر:

- ذرعنا البادية كلها ابتعدنا عن الحدود فلماذا يا خوي مطر تكسر قواعدنا!

يتخضل الأفق باحمرار دموي.. أحد الأعرابيين يتنبأ:

- أرى عاشق الوهم عبر الحدود مع القطيع.. يبيعه لأحدهم.. مَن يدري!

يضيف الآخر مضيقا فتحتي عينيه مركزا نظره:

- ترون يا جماعة ماذا هناك.. تلك الهيمة لا أرضنا.. الحدود صارت وراءنا.. الأفضل العودة بلا متاعب!

شتيوي في دهشة:

- لكن ماذا هناك يا جماعة الخير؟

يتطلعون ثلاثتهم إلى الأفق، يحتضن أشكالا غريبة على تموجات البادية.

الخيول تتسابق شيئا فشيئا، الريح تمسح الوجوه باردة منعشة رطبة، توقظ رغبة تمرغ في غدران، في تفيؤ عند واحات ظليلة، الأشعة الحمراء ترتمي على أديم البادية.. تكشفها مترامية بلا حدود.. بعيدا تتراقص التماعات فضية.. الفجر يتدفق منها.. أحدهم يظلل عينيه:

- لا داعي للتسابق هو السراب...

الخيول تسرع، الانعكاسات الفضية لا تنأى، تقترب تزداد سطوعا ألقا..

بحار أمامهم مد النظر.. تتسارع الخيول.. شتيوي في لهفة:

- يا جماعة. ذاك البريق لا من أعمال سحر ولا هو السراب!

ليس ثمة سراب، في السماء نقاط سوداء كثيرة سارحة في هدوء.. طيور حقيقية... أسفلها غدران واسعة متصلة بالسماء.. حلم هذا أو وهم من أوهام.. خيولهم تطير في الهواء..

وجوههم باردة تسفعها ريح الفجر، عيونهم حارة مالحة، على الضفاف تتمايل أعشاب خضراء، خضرة صبغة الجوهر على إليات القطيع، لكن لا خراف هناك! ليس غير آثارها مبعثرة هنا هناك، خربشات معركة، والهدوء شامل يكدره نعيق غربان حائمة فوق شيء ملقى على الضفة.

يجر الرجال الثلاثة أعنة خيولهم، تتباطأ، تتوقف تحجل لهثى.
شتيوي يهمهم:
- أم الوز!!
- والله تبيّن ما تبيّن.. بعد كسر القواعد واجتياز الحدود!
- بلا.. عسى نجد هناك الحلا..

تزنخر خيولهم.. تتمرد خواطمها على الألجمة.. رائحة غريبة نفاذة تحاصرهم!

يغمغم أحدهم في خوف مشيرا إلى ذلك الشئ الممدد تحت تشكيلة الغربان:
- لكن.. هناك.. جثة.. يا جماعة.. نعم.. عيونكم تراها هناك!

أحفاد عشاق الترحال يتقدمون على خيولهم بطيئا.. إلى موقع فاجعة أمامهم!!



▪ خبر ١١

ليس كالريح

يتباطأ إيقاع الطبل، يتعثر، تتقطع ضرباته، يتوقف الطبال عن الضرب، يضمحل نشيج الربابة، وتتناول الفتاة فوطتها من حضن الرجل المتكىء على حافة السرير أمام الموقد، غائمة السحنة تقول:

- سليمة.. ارقصي مكانى.

يتشبث الرجل بطرف فستانها محتجا:

- على خير؟

تنتزعه بقوة، تخرج ورقة نقدية من جيبها ترميها عليه منتهرة:

- هاك حق التفريعة.. اتركنى..

يمسك ذيل فستانها المزركش الطويل، تسحبه جرّة سريعة، تنحني لتخرج من الخيمة. يترك راعي الخيمة ابو البنات المتمدد على السرير خرطوم النارجيلة جواره يخطو على الحصير يمد يده يستعيد من جيب دشداشة الرجل الورقة المقذوفة قبل قليل.. يذكرّه:

- حق الشاي.

ويلتفت إلى الفتاة الأخرى، يلتصق بها رجل عقاله ويشماغه قربه على الحصير:

- سليمة.. زيدي الشاي حبة هيل وخذي دورة.. رقصة هجر..

يعود ابو البنات إلى مكانه على السرير قائلا في اعتذار:

- لا تهتموا للبنت رمزية تراها مجنونة.. أنا حالف برأس والدي غير بناتي لا ترقص واحدة تحت سقف هذى الخيمة.. لكن عجيب.. الزلم عشاق الطرب تحبها.. دق يا اعور..

يحصر الطبال مرسل الشعر حتى الكتفين طبلته بين ساقه وخاصرته يرفع يمناه يهوى بها على جلدة الطبلة. يتبعه عازف الربابة مميلا رأسه على صدره كالنائم، فيما تضع سليمة يدها على اذنها تصيح متنهدة:

حبيبي.. حبيبي.. أسرع بالعدو من الريح..

يبقى عشاق الطرب الثلاثة المستريحون حول الموقد متأجج النار والظنون يتبادلون النظر في صمت، تتسلل يد أحدهم إلى ما تحت الفوطة السوداء حول رأس جليسته، تتغلغل يد الآخر من الجهة الأخرى تحت طيات ثوبها الطويل. والرجل الثالث المتكىء على حافة السرير يحتج:

- يعنى نرمي فلوسنا إلى الشط؟ إلحق رمزية شف حالها مالها!

يبعد راعي الخيمة النارجيلة عن شفتيه يرد:

- البنت مجنونة.. لا نقدر نرغمها.. لا تقدر تشتريها فلوسك...

• • •

تدخل رمزية خيمتها تحكم شد الفوطة حول رأسها، تعقد ذراعيها على صدرها تنظر إلى الأرض في شرود، قرع الطبل يطرق سمعها من بعيد وجيب قلب خائف قريب.. غناء سليمة يتعالى استغاثات...

حبيبي... حبيبي... أسرع بالعدو من الريح...

تعدل وضع الوسائد الصوف على البساط الجديد النظيف، تنفض حاشيته، تتناول خرقة من تحته تمسح مسند المسطبة الشاغلة نصف فسحة الخيمة، تمررها على خشب الصندوق الكبير المرصع مسامير لامعة، تتباطأ أمام المرآة المغبشة، تتمعن حالها، تفاصيل السنين الغابرة تعبر خيالها.. تعيد الخرقة إلى مكانها، تنحني ترفع طرف ثوبها المزركش، تفكر، تسقطه، تقعد على البساط تحيط رأسها بيديها..

التفريعة ربع دينار، رؤوس فوق، رؤوس تحت، المصابيح تضوي، الليل نهار.. ناس جالسة على الأرض.. على المساطب.. ناس واقفة.. ناس عند محجر السطح، بنت على اليسار، بنت على اليمين.. العيون كلها مشدودة إليها، الثوب التفتة الأحمر يتلامع، يلهث مثل قلوب العشاق، لحم الدلعة يتلاطم موجة على موجة، الطبال يدق لا يلحق، عزف الربابة ضائع وسط الحسرات والتصفيق.. وصوتها طائر فوق سطوح الجيران والنخلات..

تدلل عليّ تدلل.. بس لا يا ولفي تزعل.. كلما تريد تدلل..

ويتدلل، كل شيء يجرى مثلما يريد، فلوس انهار، سيارات تتقاطر لا تنقطع، ناس كثر لا تعد لا في الليل لا في النهار..

تنتبه على نداء يتتالى من الخارج، تنهض تزيح ستارة الجنفاص الثقيلة، تتطلع إلى الخارج، تصيح في الليل الرائق:
– يا حسنيه.. رجع عقاب؟..

يجيئها الرد من خلف الدواب والخيم:

– يرجع الغراب ولا يرجع عقاب.

تستفسر مهمومة:

– جاء ضيف؟

– يجيء ربيع بعده يجيء الصيف والضيف.

ومرة أخرى تسأل:

- رجع غضبان؟

- ترجع الحمامة بعدها العاشق الولهان..

تترك الستارة تنسدل، تقصد الفانوس المعلق في عمود الخيمة الأوسط تخفض فتيله قليلا.. يترسب نور قنوط حول الظلال الداكنة.

• • •

يدخل عليها مثل نسمة آخر الليل، هادئًا، سريًا، ينزع حزامه وخنجره يضعهما على الصندوق الكبير، يرمي جسده الرشيق على البساط يتكئ على وسادة الصوف، يتفرس وجهها متلاحق الأنفاس، يسألها:

- رمزية.. خبرك؟

تلتفت إليه، عيناها تطوفان على الأرض:

- محتصرة..

يده عند رأسها، يحل الفوطة السوداء، شعرها شلال ليلي داكن، يغرز أصابعه القوية في منابته، هي غارقة بين أوهام وأحلام يخرسها ألم داخلي طفيف، يجرها نحوه:

- آذاك أحدهم؟

ترغم نفسها على تصريح:

- لا.. لكن.. أرسلت عقاب إلى الولاية ما رجع..

أصابعه تمسك شعرها في خشونة يدير وجهها إليه، عيناه تذلّها، تضيف:

- أنت مجنون؟.. عشرة مثل عقاب يروحون فدوة لعيونك.

- إذاً؟

لا تزال في وحشة، ملامحها تذوب في صدأ النور الواهن:

- أرسلته ظهرا غير راض.. الليل حل ما عاد.. والدنيا صحو.

تلتمع عيناه السوداوان تحت خصلات شعره المبعثرة على جبهته:

- ما كان يجب إرساله.

يومئ رأسها آسفة:

- أردت طبخة لحم لمجيئك.

- يدري عن مجيئي؟

- تخمين.

- يعني؟

نظرتها مؤنبة، نبرتها مغلوبة:

- رآني اطلع صابون الهيل.. ثوب الأعراس..

- سألك المودلي عني؟

- لا. بس تذمر.. قال: إلى متى هالحال؟!

تسكت برهة.. تضيف:

- حين روّح إلى الولاية.. في عيونه شيء لا أفهمه.

يحرر شعرها من قبضته:

- يعني لا يترك.. لا يخاف تكون نهايته نهاية فاقد أصله؟

- لا تهتم له غضبان.

تتوه نظرتها في زخرف البساط الملون:

- لو تنقضي هذي الليلة في سلام..

يلتفت إليها ثاقبا عينيها نظره:

- رمزية.. نزع الهواجس قبل الملابس.. شيء تخفيه؟

تهرب نظرتها منه.. تتطلع إلى ظلمات الزوايا:

- لا شيء.

يتفحصها طويلا.. يقول في هدوء:

- انهضي.. الفرس عطشانة..

- مستعجل؟

- الحذر يغلب القدر.

- تف من حلقك.

بعد حين يسألها غضبان:

- التموين حاضر؟

ترد رمزية في نبرة زعل:

- كل شيء موجود تحت المسطبة.

- وكيف حالكم هنا؟

عدم الرضا يغلبها:

- للكيف قلة تجيء.. رئيس عرفاء جمبش وخيالته وسداراتهم المثلثة يمرون.. يسأل عنك.. أقول أنتم أدرى به.. يحذرني.. يقول.. عاشقك الولهان مجرم يتركك مثلما يترك غيرك..

- الكذب تفريق أحبة وإيقاع في يدهم.. أسلوب سفلة معروف.

- وينذرني جمبش.. يقول.. يوم المتمرد قريب.. ملفه كبر يعني حذفه أو ترفيعه.. أضحك منه أسأله: أرفع من تجويع.. سجن.. أو ترفيعه إلى رئيس ظرفاء مزمن مثلك؟.. يصيح بي.. اخرسي.. خبريه يسلّم لنا مثل بقية الخارجين عن قانون وسنبقيه من الشرفاء الأبطال مثلما يريد.

- أوف.. كل شيء عكس. أسفي على دولة تمثلها أُرضة ناخرة فيها.

- الخطر يتزايد غضبان. صرن يرقصن في التلفزيون ببنطلون وأغاني أحسن.. لا أحد يبقى هنا غيرنا.. تفريعتنا ترخص.. كلهم ينزلون إلى الولاية.. يؤجرون بيوت هناك.. رقص البنات على مبلط لا تحت خيمة..

يكظم غيظه لحظات.. يهتاج غضبان:

- وأنتِ.. أي شيء يمنعك من لحاق الرخيصات؟

ترميه نظرة مستهجنة، تجره من شعره إليها قويا تعضه في خده، تقبله في أذنه تلتمع أسنانها تضيء ليل الخيمة الكامد ابتسامة.. تهمس:

- عناد الوله.. عشق العاشق.. يمنعني.

تلتوي شفتاه ازدراءً:

- تريدين ننزل الولاية.. نسلم حالنا يد المدنية.. تحبسنا بيوت طابوق.. نمشي شوارع رفيعة مثل حد السيف.. أضيع رمزية وهذا الهوا..

يغيم وجه رمزية مع فكرة.. تتكاثف سحابة سوداء.. تهمهم:

- ووضعك هذا؟

يسكت طويلا.. يقول:

- غزال في فلاة.

- جاء الذئب جاء الثعلب؟

- المهم حر مثل الريح..

تسكت طويلا أيضا، الكلام ينتهي إلى مرتفع عال تحيطه هوة سحيقة حيث لا يمكن التراجع، كلمة لا توضع مكانها الملائم تكفي إلى جرهما دمارهما على قاع مجهول..

رغم ذلك تتساءل حاسمة أمراً ضربةَ سيف:

- المطارَد حر؟

تمرد أصابعه الضخمة لحيته الوحشية السوداء:

- حر.. ما دام يختار وضعه.

تطأ رمزية في خيالها أرضا مجهولة.. تعترض:

- هذي ما حرية.

يعقب غضبان مؤكدا:

- حرية.. يفقدها حين يستسلم لمطارديه.

- صحيح أنت اخترت مصيرك؟

بين بأس ويأس يرد:

- سؤالك يشبه سؤال البيضة والدجاجة!

- لكنك مهدد.. لكننا..

- حالنا المهدد أحسن من حال تنزيل الرأس والفساد.

- نحن نَغرق فيه..

- نُغرَّق فيه.. الشرف الحقيقي فوق كل شيء.

- أنت معترض على الكل.. أجرمت.. ذلك ما فساد؟

- الواحد يفهم بطريقته.. قتل أفعى خير.. دولة تعاقب عليه سمعت.

- غيرنا يسأل ما ذنب الأفعى.. يرى لها بعض الخير!

- هكذا حكى مهندس.. ذنبها عندي أنها مخلوقة بهذي الصورة.. تلدغ.

- تعترض حتى على إرادة الخالق؟

- اعترض على ما هو سيّء.

تلتفت رمزية جانبا لا تفهم كل شيء، خاطر غامض لا يتضح لا يبرح ذاكرتها، ضرب الطبل ضعيف هناك، صوت سليمة واهن في الخلاء:

حبيبي أسرَع بالعَدو من الريح..

- ما سقيتِ الفرس!

- خليها تتعلم الصبر.. مثلما أتعلمه.

يقبض على شعرها يطرحها على البساط.. يتلألأ نور بين أجفانها.

• • •

نور فانوس"اللوكس" ينبعث من أعلى عمود الخيمة الكبيرة يشقشق ظلام البرية، ينحرف مثلث الخيالة وراء رئيس عرفاء جمبش عن مضرب الخيام.. يؤدون دورة مناورة واسعة حوله..

يقتربون إلى المدخل، يتوزعون زوايا المضرب، يتجهون بعيدا عن الخيام إلى حيث تخفيهم ظلمة الخلاء. رئيس عرفاء يتل محروسه سعد يعود إلى الخلف فيما يلبد آخر قرب سيارة بيكاب مغبشة من نور واهن متهرب من فانوس نفطي صغير معلق إلى عمود خيمة قريبة. ينتصب أوسطهم على الركاب، جواده يحرك قائمتيه الأماميتين في تململ، يهز خطمه نحو الأرض، يزنخر قويا..

يطلع من الخيمة القريبة صبي صغير يمسح مخاطه كم دشداشته القصيرة ما أن يتبين القادم جيدا حتى يرفع يده إلى رأسه يؤدي ما يشبه تحية عسكرية، يعود يختفي مثل مطارد داخل الخيمة. يرفع الخيّال عصاه يشير إلى الخيم الموزعة حول ساحة صغيرة تنتشر فيها برك المياه يتوسطها عدد قليل

من الدواب. يهتز القمر على سطح الماء في هدوء إذ تمر فتاة تحت حبل غسيل تنحني تجتازه إلى الخيمة الكبيرة، يتعالى من هناك صوت نسوى يغني مع ضرب الطبل وعزف الربابة المتقطع كالنشيج..

يترجل الخيالة يستقبلهم بضعة أطفال عند المدخل، تظهر نسوة من لا مكان، لكل واحدة منهن طفلها، يختفين معهم في الظلام الكثيف أسفل الخيمات الصغيرة المتكاتفة حول الساحة. بنات نحيفات يتوقفن قرب الأوتاد يتلفعن أنصاف بطانيات كالحة وأنسجة صوفية ملونة، تهفهف الريح أذيال أثوابهن المزركشة اللامعة تتبعج، أنفاس تتلاحق هلعا. الخيول تتململ عندما يتوقف الخيالة مترجلين أمام الخيمة الكبيرة، يحررون محافظ مسدساتهم من أغطيتها، يلقي أوسطهم نظرة خلال شق في الستارة، تزيحها يده في هدوء يتطلع إلى الداخل..

المشهد هناك هادئ، الحاضرون لا يفاجأون من وجوههم..

تواصل المغنية أغنيتها عالية الصوت تلك المرة منهية ترجيف كتفيها:

حبيبي... أسرع بالعدو من الريح...

• • •

تهب تهب رمزية من تحت صدره تستوي على بساط الصوف:

- اسمع.. سليمة تغيّر معاني الأغنية هناك.. لا لعشاق الطرب!

تخرج من خيمتها حافية، تتسلل في الظلام المتجمد حول الخيام، القمر يسطع عاليا باهرا كحريق أبيض ينير كل شيء، الريح تجري هاربة إلى لا مكان.. ترتعش الأعشاب البرية المنتشرة في الحول قنافذ مرعوبة..

تعود رمزية تجده متمنطقا حزامه، ترتمي عليه يدها إلى خنجره متوسلة:

- اتركه.. خله عنك.. سلاح الآدمي غضب عليه..

تلمع عيناه كالنصل العاري:

- بلاه نضيع وبالبلاء يظهر معدن العالم ماذا تريدين ها.. جاء الوعد؟

تتشبث به غرقى انفعالاتها:

- ولا يهمك، حساب عقاب عندي.. بس أتركه..
- لا يا رمزية.. النعجة تلوي رقبتها لا ابن آدم.
- فدوة لعينيك.. لا تسوي الطين دهلة.
- يعني أبدل رمزية والشمس بظلمة حجر.
- رمزية تبقى رمزية حتى لو يحجزك سجن حديد.
- تتبدلين.. الدهر يغير حتى الصخر.

- ثلاث سنين سألنا الولاية. أتحمل حتى ألف والشكل لا له اثر على مندثر.
- لا يا رمزية.. أنا حر.. لا حيوان.. لا شجر.. عوافي القهر مستطيبه.
- فدوة لعينك.. إسمع كلامي إذاً.. لا تغتر.. بعدما أطلع احسب من الواحد إلى خمسين أو أكثر. بعدها تأخذ الفرس تطلع مغرب ولا ترجع إلاّ بعد ما يعود العشب اخضر.. توعدني؟

تحاصره عيناها.. لا يطيل تفرسه فيهما.. يدمدم في اضطرار:
- أوعد يا رمزية.

يخترق أذنه طنين عميق، قبلة تمتصه، لا يستعيد انتباهه إلاّ هو وحيد وسط فراغ الخيمة الصغير، يستولى عليه نور موحش ثقيل، من خلال شق ضيق يبدو الليل شاحبا في ضوء القمر الساطع الشديد.

الأشياء تتداخل عند الضلال، زد بين أنسجة وظلال، حتى الجماد يتخفى عن عيون خطر داهم من كل الاتجاهات، تتعالى أصوات بعيدة، تنبح كلاب، يجري رجال هناك إلى مكان. يستل خنجره من غمده المفضض، يتراجع إلى مؤخرة الخيمة، ينفذ نصله في نسيجها يسحبه إلى أسفل يمزقه حتى الأرض. يمد رأسه حذرا إلى الخارج تستقبله ريح باردة ورائحة فرسه

الواقفة في الجوار تنفث من منخريها الواسعين أنفاسا رمادية متقطعة..

تتراجع الأصوات خلفه، ينطلق كالسهم نحو مهبط شمس يوم جديد.

وهناك بعيدا عنه أمام الأفق جواد آخر..
يجري يأخذ فارسه حثيثا إلى المشرق..

يجر خلفه المطاردين، مثلث الخيالة الأسود يذوب في الظلام، لا يكاد غبش المسافات يموه الفارس حتى تنهمر من المثلث هناك إطلاقات تدوي ممزقة صفو الفضاء.. تتباطأ الخيول شيئا فشيئا.. الغبار يهمد كالرماد..

يقترب المطاردون إلى الفارس المجندل على الأرض، جواده يدربك عائدا مخذولا إلى الخيام، يحيطون الطريح على خيولهم، يتمتم أحدهم فاغرا:
- أوخ.. لكن قدامنا رمزية.. أين متمردها العاشق المكابر غضبان!

غير بعيد عنهم تصهل فرس ما في الصمت.. يلتفتون..
تلك هناك.. قادمة تحمل الهارب غضبان.. مدلي الرأس على صدره حيران.



■ **خبر ١٢**

غادة الورد جوري

تفد الرياح إلى ديرتنا عادة من جهة الشمال، من هناك حيث تقع العاصمة بجسورها وملاهيها وبيوتها المسيجة بحدائقها الصغيرة الخضراء. لا يسعد الحظ أحد منا بزيارتها إلاّ قلائل أحيانا، يحدثوننا عما تراه عيونهم في تلك الحاضرة العجيبة المشتهاة نتنهد نقول: تلك دنيا لا نُخلق لها لا تُخلق لنا. أحيانا تتحول الأنسام إلى ريح غاضبة فنعرف آتية من جهة الجنوب، يمد فلاحونا رؤوسهم نحو كوى بيوتهم الطينية، ينظرون إلى أعالي النخيل تهتز كيفما اتفق، يلفون سيكارة إضافية، ثانية، ثالثة، باختصار يتأخرون تلك الأيام في التبكير والخروج إلى حقولهم المستباحة بريح تستريح على كتف جبل الشمال مع طوف نوح المنقذ العابر الغابر..

عموما كل شيء يأتينا، عن مصادفة أو تدبير، من هناك حيث تجلس تلك المدينة العروس بغداد، بدءا من الرياح والبذور والنذور إلى السيارة الدكان تنفخ في بوقها صباح كل جمعة

حاملة لنا الأمشاط والشخاط وعلك البستك والمرايا، نقايض صاحبها ما نشاء من حاجات بالتين والزيتون والرمان، تعبرنا السيارة عبور الرياح إلى قرى أخرى تحاذي شاطئ الفرات حتى أماكن نائية لا نعرف عنها شيئا، لا نسمع عنها الكثير..

لديرتنا اسم لطيف، غريب، لا يعرف الكبار ولا الكهول أو العجائز أصله ومعناه.. دولاب الهوا.. يقال إن احد الأئمة الصالحين في قديم الزمان يلجأ إلى هذا المكان هاربا من شر حاكم لئيم، يأنس فيه فيئا زرعا، مقاما حريزا أمينا، يستقر فيه يطلق عليه تسمية "دولاب".. يألفه ملعبا للرياح للحرية يضيف إليه كلمة: هواء..

غير إن الخبر لا يعدم مَن يشكك فيه، البعض يذهب إلى إن الاسم حديث يردنا من الآباء، لحبهم وتعلقهم الشديد بأرضهم يرونها الدنيا كلها يسمونها هكذا، نسبة لدولاب الهواء، الصاعد النازل صنو الدنيا، رمزها في عقول عقلاء.

مهما يكن من أمر تسمية ديرتنا لا يعبأ أحد منا بذلك كثيرا، لا يوجد عندنا مَن يهتم بالأصول والتفسير، لا أحد يُلقي أسئلة من النوع الثقيل، وليس هناك مَن ينتظر أجوبة على غوامض تخصه من بعيد.

كل شيء يجري هنا هادئا وادعا، أو كان، جريان مياه الفرات منذ الأزل، شروق الشمس غروبها كل يوم، يولد الناس يموتون في أجل، الموضوع الوحيد الذي قد يشغل بال الجميع في تفاصيله موضوع من الماضي، نشوء الطوفان، تفشي وباء الجرذان، غزو مغول.. كان، أو موضوع حب من هذا اليوم، طلاق، بيع بقرة، ميلاد عجل، ذلك حال القرى أينما نبقت تنبق حتى يجتاحنا الغزو الثاني على تخوم الألفين، بعده يتغير كل شيء، أما قُبيله.. وقت بداية حدوث حكايتنا، درجوا يسلمون واحدهم على الآخر، يتناقلون الخبر الجديد مثل رغيف الخبز الحار، يقضم كل واحد نصيبا منه، مع اختلاف يعرفه الجميع، أن الخبر يتسع ينتشر خاصة عن فضيحة وراء منعطف تنتظر، فيما تضيق فسحة العيش.. معها رغيف الخبز.. يضمر.. يصغر.

مَن يؤم المدارس منا لا يفهمهم، يقول:

- ماذا يلوكون في جوع النهار الطويل غير خبر من فلان شارة علان!

غيره يغضب مقرقرا النارجيلة، يلعنهم في تطاول بين يأس وأمل:

- في زحمة الخوف من الصيهود والمستقبل يجترون في مقهانا الصغير المغبش كالدواب هناك ما يُلتهم على عَجل..

- ذلك حال أهالينا عشائرنا من زمان.. حال شباب اليوم لو ينكروا الانسياق وراءهم.

أخيرا بلا وجل يحسم الجدل واحد منا يحب الشعر:

- تريدون الصدق.. اللغو غير مقبول. علينا تشغيل الدماغ واحترام الأصول.

• • •

على أي حال يحدث تحوّل كبير ينعكس في ما تبقى من حيوات الجميع.

أول الربيع تظهر أول البوادر، الكلام لآبائنا وأجدادنا، وقتها لم نُخلق، ثلة أفندية في سياراتهم الجيب تتوقف عند خصر الفرات، يترجلون تصحبهم حشرات حديدية، نعرف بعد حين إنها آلات تجس نبض الأرض تبحث عن عروقها، ينفضون الغبار عن ملابسهم يرفعون أيديهم تحية لمن يقترب محاذرا مستطلعا، تجول أبصارهم في الشواطئ والحقول، يقولون:

- أنتم محظوظون.. قريتكم يصيبها خير وفير..

لا يصدق الكبار طبعا أبناء الولاية، يضحك بعضهم:

- الخير يخر حولكم جئتم معه إلينا.. المعاصي وراءكم؟!

- بالمختصر يقام هنا خزان كبير ترصد الحكومة له أضخم المبالغ، سيشتغل عاطلوكم، حقولكم ستقطعها طريق جديدة، سيارات عديدة ستأتيكم في الأسبوع.. بركة العاصمة تحل على بيوتكم جميعا.

كهولنا لسبب لا يرحبون بأولئك الغرباء، رجالنا يجدون في سجاير الأفندية جاهزة اللف متعة ولذة، على العموم تقبل قريتنا الأغراب من غير اعتراض أو ترحاب، لا يدعوهم إلى بيوتهم لا يجفوهم في مجالس السمر، تنعقد غالبا على ضفاف الفرات صيفا، وطبعا في مقهى القرية الصغير شتاء حيث نجلس:

- ابن أهل الولاية لا يحترم أباه كيف نصدق خيركم يعم علينا؟
- الاحترام موجود، الدين طوائف، الأخلاق ألوان، يعني لا تبعية.
- وبنطلونكم الضيق.. نلبسه نهز مؤخرتنا نصير أوادم؟
- الآدمية لا لبس بنطلون ولا الغترة أبو فلان علامة احترام!
- كلام معقول.. لكن يبقى الصادق على كلامه اليوم مع كثرة الضيوم؟

مرة أخرى.. الشاعر الذي لا يستحي يقول:

- تريدون الحق؟.. لغوكم غير مقبول. المقبول كل واحد وما يختار!

يمر صيف وآخر يأتي أناس متعبون مهمومون من المدينة إلينا، بناءون، نجارون، برادون، لا يمر صيف آخر حتى تذوب الحدود المصطنعة بين القرية وبينهم، يُفتح مقهى آخر، أول مرة نتعرف على معنى الدكان، بيتا من طوف يملأ صاحبه حجرته بالبصل وبراميل النفط، دابة يضعها في الساحة يمزج حليبها ماءً يبيعه مع أرغفة الخبز إلى العمال.

دولاب الهوا تبقى تعيش يومها الأبدي المعتاد منذ الأزل، قدوم الغرباء لا يحرف مجرى الفرات، لا يؤخر مجيء المواسم، شيئا فشيئا تصير تلك الفسحة الصغيرة المثلثة الموحشة المقتطعة من خصر الفرات لخزانهم جزءا من طرق وساحات وبيوت القرية، يمر جوارها الفلاحون في غدوهم رواحهم يلقون نظرات لا تعبأ كثيرا بما يحدث، الحال يبقى مثلما هو عليه أولَ ظهور الأفندية عندنا قبل أعوام. يبدو أنهم في غير عجلة من أمرهم، بعض عمالهم يهمس في أذن بعض فلاحينا في المقهى أو خارجه:

- لا يريدون إنهاء المشروع حتى يسرق الكبار منه أموالا طائلة، حتى يضمنوا بقاء المشاريع الآتية في يدهم بقاء السلطة والحكم والأجنبي معهم فلا يقوى غيرهم لا يجرؤ أحد على فضحهم..

المهم، رجالنا يشيخون، أطفالنا يكبرون، الجميع مشغول بالعيشة، الأفندية يعطون هدايا صغيرة أحيانا نفرح بها، بهم. أخيرا لا يتذكر أحد منا كيف ينهض الخزان عاليا شاهقا بلا بريق.. لماء الشرب.. للنفط.. لإطفاء حريق.. سيّان، ما يقال يتغير، لا يشغل كثيرا البال، لا نتذكر كيف تنشأ تكبر كلمة "هرية" بيننا.. مَن يطلقها؟ ما مصدرها؟ المهم معناها.. ذلك الخزان الكبير..

يصير موقع الهرية مكانا عاما، يلتقي عنده صبية القرية يستعرضون بطولاتهم أمام الأطفال الآخرين الأصغر، مَن يصعد سلمها الحديدي حتى طوقه الأول عنترة، يحوز على الإعجاب فترة طويلة، يجدده كل جمعة أو يأفل صيته. الطوق الثاني نصيب الشبان الكبار، يتبارون إليه حين يخف عقلهم يتغلبون على تحفظهم. يبقى الطوق الثالث، لا يصله غير الملتحي المدهن ذي الملابس السوداء المقيم عند ماكنة الهرية..

مرة وأخرى يسقط صبي منها، يكسر ضلعا، يفقد حياته، كل شيء يبقى على ما يرام، الأقاويل هامدة، لا تشب حريقا إلاّ مع حكاية حسنة وحسان:

– غضب نازل على دولاب الهوا تلك الهرية.. أو هي قدر..

– صرح من صروح أعلى في أمم أخرى.. يعني لعنة من لعنة أكبر.

- برج بابل عندنا لا ننساه.. تبلبلوا.. بعدها أهل الرافدين شذر مذر.

ذلك الذي لا يستحي لا ينسى وضع توقيعه بعد كل كلام وسرد خبر:

- تريدون الصدق لغوكم غير مقبول.. خلونا لا نلصق تقصيرنا بغيرنا.

أقاويل كهولنا منذ فاجعة شتيوي بهما لا تنتهي.. تتدفق في كل اتجاه..

أو لعل الهرية هي نعمة من العاصمة أو السماء، ذلك أيضا يقال، تجلب لنا طريقا واسعة جديدة، تسير عليها شاحنات تخلصنا من عناء الجري وراء الحمير، تُنقل عليها خيرات حقولنا إلى المدينة، توفر لفوانيسنا طعامها السائل، ومنها يسكن النور بيوتنا في الليالي المعتمات..

حقيقة لا نشغل البال كثيرا بتقصي الحال، الحقل القريب والبعيد عن الطريق العامة يجد فيها خيرا عميما ورحمة كبيرة، إلاّ من يعرف عن قرب حسنة وحسان، لا يمكنه العثور للقرية على سبيل غفران، ولا المرور بالهرية دون النفور منها وهو يراها رمز بهتان..

تتصل أطراف الحديث يسترجع بعض عقلاء قريتنا حكاية حسنة وحسان، يقلبون الحال يعيدون الشواهد، يجهدون الفكر قصد الوصول إلى نتيجة، نهاية المطاف يسلمون:

- لا شيء يعيد حسنة إلينا..
- ولا حسان إلى مهد شبابه وصباه دولاب الهوا.
- ماذا تبقى فيها غير الحنظل يرجع إليه؟
- تراه يضرب القدم على أرض الله الواسعة حيرةً أو يتمخلع لا ندري!
- المهم. صدفة يُساق طيبون إلى هلاك بينما يحظى أراذل بطيب عيش أو في الأمر سر يعلو على مدارك البشر؟

ذلك الهباش الشاعر الذي لا يستحي يلخص على عادته حيرتنا:

- تريدون الصدق اللغو غير مقبول.. الأسرار موجودة نعم لكن لكشفها.

قصص العشق والهوى في قريتنا لا تنتهي مذ يشطر الضوء، تُخلق الكائنات، تجري مثلما تجري الأنهار، لا أحد يدري تبدأ من أين، أين تنتهي، معها تجري انهار الدم غالبا، الحب والدم في قريتنا صنوان.. لكن... ويلاه.. ما يصيب ست الحسن حسنة لا يحدث مع غيرها من المليحات.. ولا هناك ما يشبهه في ما مضى أو في ما هو آت.

الهرية هي البداية يتفق أغلب القوم، البعض يلمّح إلى النفس الأمارة، لا جُنحة إذاً للهرية وصنّاعها. آخر يعقب، يتبعه غيره، فآخر يطنب:

- لولاها لا يجد حسان مكانا لخلواته الآثمة مع حسنة.. وهي مثل أخته.
- روح تصيبها لعنة العشق قل عليها السلام تنسخ شياطينها في ذريتها.
- لا عجب، لحقولنا بساتيننا من حكايات الحب ما لطلع نخيلها قبل الرُطَب..
- فما ذنب الهرية.. وأي جديد من حرام بها يلصق أو منها ينبق!
- قبل نهوض الهرية واجد قصص العشق متوالدة فينا نعم لكنا منذ سابع ظهر لا نسمع مثل ذلك الحرام الذي نراه يا ستّار!
- وأمها بنت الخائبة حكايتها غريبة، شتيوي نزيل قريتنا يستقدمها من ذلك الصوب عبر النهر بعد لأي ونأي وإذا لعنة العشق غدارة تنسل..
- اللعنة في نطفته مغروسة.. غرس بذور في أرضنا المستورة.
- تريدون الصدق.. لغوكم غير مقبول.. الناس وما تشتهي.. ما لنا بهم!!

- **حكاية شتيوي:**

أبو حسان، شتيوي، فلاح وسيم، قامته طويلة تجعل نساء القرية يرفعن رؤوسهن حين يمررن قربه، صوته خشن حلفاء، أمضى من صوت المؤذن بعد فطور البيضات السبع، يعرفه لا يصلح لغناء وعتابة يصر على الوقوف عند النهر في الأماسي يرسل بوذية بين وقت وآخر إلى الصوب المقابل من النهر تخاطب كلمات أغنياته الجريحة مجهولا يختفي في الماء أو وراء أعواد البردي والقصب على ذلك الجانب، لا ندري في البدء ماذا هناك. بعد قدومه الغامض من قريته قرب العاصمة صحبة ابنه حسان- عمره آنذاك درزن سنوات- نتبيّن انه يوم ولادته يودع شتيوي أمه حرمته مشتهاية والقابلة المولدة لها إلى الأبد على أرض الضيم والقهر التابعة لآل ضاري، وإثر خصام غير طويل مع الشيخ ذائع الصيت بخشونته يهيم شتيوي وأخوه على الوجه مع الصغير في البادية حتى يفترقا يحل به الترحال مع حسان بعد سبخ وطوفان وجفاف في ديرتنا، لا ينهزم شتيوي من تقلبات وقحط بل من قهر آدمي ثقيل، يدفنه سرا في قلبه الكليل، ليالي البوح والتذكر تفلت من صدره حسرات جثيثة مثل الصخر، من حرقته لا ينجده دعاء يلتهم التراب متعللا انه يشفي المرارة يطفئ الغلة.

يمكث على ذلك الحال أعواما بيننا، يطمئن له القوم يفتحون له أبواب بيوتهم، يطيب له المقام، حالنا أخيرا ليس حال شيوخ ولا معدمين، الجميع في دولاب الهوا سادة أنفسهم، لا يرتفع بيت على بيت، حتى وبعضنا ميسور مقتدر، يؤويه أحدهم في البداية راعيا عنده مقابل نعجة وبضعة دنانير في الحول مع نعل ودشداشة كل عيد أضحى. شتيوي أبو حسان زلمه يملأ العين يقال عندنا، ما أن يحس دبيب الشيب في رأسه حتى يجمع مَهرا له قيمة تغري أطمع الآباء، يكدح عند هذا ذاك، بالسخرة بالأجرة حينا، بالنخوة حينا آخر، يحبه الجميع يحترموه، بعضهم يستعد لتزويجه واحدة من بناته على علمه عن قلة أصله غموض نسبه، لكن والحق يقال الرجل شتيوي على خلق كبير وعقل راجح سديد، أعرَف من غيره عن شأنه في القرية، اختياره الصعب يظهر أخيرا مفاجأة للجميع، لا يريد تفوه كلام يرد عليه، يتقدم إلى واحدة منا يُرفض طلبه، يصيبه هوان، عليه يفتح موضوع اكمال دينه زواجه مع كبارنا مبسملا باسم رب العالمين طالبا تعضيده في مسعاه، المشي لأجله إلى الجانب الآخر من النهر، في طلب امرأة يهواها قلبه منذ زمن خفية عن الجميع..

- الجانب الآخر من النهر؟!

يستغفر الكبار من شر الشيطان يتعوذون يحركون رؤوسهم أسفا على الاختيار، يمسدون لحاهم متفكرين في طلب الغريبة وما وراء ذلك من فنون وظنون..

- موضوعك لم يسبق لنا التعرض إليه ولا عالجناه!
- ما لنا وذاك الصوب!
- أولئك قوم لا من ملتنا ولا على ديدننا!
- نحمد الله لا جسر يجمعنا معهم.. لا مشكل..
- أكثر نحمده على غابات القصب والبردي تعزلنا لا نراهم لا يرونا..
- يا رجل أولئك قوم تضمنا سوق المدينة يكون لهم دربهم لنا دربنا!
- هم يصطادون السمك لا ينفرون منه كيف أبا حسان نمد أكفنا إليهم!

باختصار تنهال الاعتراضات عليه من كل صوب.. من كل نوع..

يدعهم الرجل يتفوهون بما في أقفاص صدورهم ثم ينطق كلامه الغريب:

- في تخطي القواعد البالية والحدود المفخرة داخل البلد مكسب ومأثرة..

معظمنا لا يفهمه، يجامله بعضنا، منهم ذلك الذي لا يستحي:

- آها وقفاتك على الشاطئ وأغنياتك المجروحة تحت القمر إذاً لأجلها؟!
- والله عمي صوته المكهرب يعمل هناك ما لا يعمله زمن طويل قهار!
- سر توغلك مع النهر في الظهاري يتضح.. لك حق.. القلب قهّار.
- تريدون الصدق.. اللغو غير مقبول.. صادق يطلب توسطكم استجيبوا!

باختصار يتردد الكبار في البداية، عبور النهر شغلة كبيرة، في طويتهم على أشد الرضا، التماس الرجل معونتهم تأكيد على أصالة معدنه، على عدم رفع عينه إلى بناتهم، على تقديره لهم يكاشفهم أسراره أفكاره، أخيرا التماسه دليل تأكيد علو مكانتهم، يقدر الرجل مقدما استحالة قبول أحدنا رمي بنته تحت صدر غريب هرّيب لا يُعرف له أصل فصل. يقال صراحة:

- مادام الأمر لا يتعدى طلب امرأة من الجانب الآخر لا العكس فما أسهله مقارنة مع شراء بقرة واكتراء حصان أو ثور.. لا بأس لك ما تريد!
- الرجل باختصار يجيد التقدير والاختيار.

لاحقا يتداولون في همس بين مناوئ ومدافع:

- يحسب لكل شيء حسابه.. المرأة التي يطلبها أرملة لها ابنة من عمر حسان ابنه.. أخوها صديق شتيوي يقال اسمه فضولي يشتغل في حمام الولاية.. قيِّما على عورات.. و.. مَن يتقدم إلى اقتران ثيب غيره!

- فعلا.. زد مَن ذا يرفض زوجا له عضل عقل يُحسدان فيه.. لأرملة؟

- تريدون الصدق.. اللغو غير مقبول.. مساعدة الطيب واجب لا فضل.

لشتيوي أفضال على الجميع، لهذا يسقي أرضا، لذاك يحصد زرعا، آخر يساعده في حرث حقله.. لا تبقى حجة لأحد يرفض رجاء من ذلك النوع. ثلاثة أيام يتداولون طلبه. يبحثون فيه. يقنعهم شتيوي في كل اعتراض، إلاّ أمرا واحدا، تلك المرأة من الجانب الآخر ليست من ملتنا، من ديدننا.. ليس في قريتنا مَن يرحب بمخلوق على غير ديدنه...

إنما تُفض المشكلة بعد أخذ رد طويلين، توافق المرأة وأهلها على أن يعقد عليها حسب ما تقتضيه أصولنا، يتأكد الكبار تماما مرة أخرى أنهم بعد عبور النهر إلى جهته الثانية لا يُرد لهم طلب، لا تسمع آذانهم ما لا ترضاه، هي فرصة على أي

حال لاستعراض صولات مسبحاتهم الكهرب الطويلة، بريق عباءاتهم المذهبة، لمعان مدسهم الشامية، حمّام الولاية على أي حال مكسب للقرية حين يكون لهم فيه معرفة ونصير.

للقرية زورقان لا يُستخدمان إلاّ نادرا على الجرف، يعبرون بهما أخيرا إلى ذلك الجانب مستعيذين من الشيطان، من النساء، من العشق والعاشقين..

يقام العرس في بيت أبي حسان على عجل، البيت نفسه يُكبَّر عن حجرة يعينه بعض أصحابه والأولاد على مد الأسس، عجن طينه، مزجه بالتبن، بناء جدرانه تسقيفه بجذوع النخل في فترة لا تتجاوز خمسة أيام. العام نذكره، شتيوي يخشى قدوم شهري محرم وصفر لئلا يضطر تأجيل زفة عرسه موسما متعبا، من ناحية أخرى الوقت ملائم، شمس دافئة في الأعالي، فراشات بيضاء تميل إلى الخضرة تتراقص فوق رؤوس البنائين، أشجار المشمش تحمل تترك أزهارها البيضاء تتساقط حول الجذوع، تورق الأغصان، أشجار الخوخ باقية تحفظ أورادها البنفسجية مائلة دكنة بين أوراق شديدة الخضرة، الجقال يظهر في شجيرات المشمش، والتوت يتساقط من عل على النواعير والسواقي..

ناس يجيئون من كل نواحي قريتنا ليشهدوا عرس شتيوي، لا يكتم أحد تقديره له، بعض قاطني طرف آخر من القرية لا تجمعه وشتيوي معرفة قريبة يتهامس أنه يحضر لا تكريما لغريب وافد لا يدري من أين إنما أملا في رؤية الزنديقة الآتية من الجانب الآخر. إشاعات تفعل فعلها في رؤوسهم، يقفون على ضفة النهر في انتظار فوانيس الزفة على ذلك الجانب لعلهم يرون وجهها الأبيض الملعون، قامتها الطويلة، عينيها السوداوين الساحرتين..

والأطفال يتزاحمون يصعدون على أشجار الغَرَب مدلاة الأغصان إلى النهر.. في ليل الرغاب المحرقة الشائب من ضوء القمر يظهر ركبها على الماء بين أعواد القصب والبردي من غير هلاهل، يسربله سواد، كأنهم في جنازة لا عرس، لا تطلق في الفضاء رصاصة، العروس أولا امرأة لا من الأبكار، شتيوي أخيرا رجل مستور لا يحب الزيقة والمزيقة.

يبيت ابنه حسان الليلة في أحد بيوتنا، نعرف منه إن العروس تحضر من غير ابنتها، على أن تلحق بها بعد حين، حسان يخفي رأسه بين كتفيه، نخفف عنه، نهون وحدته عليه نقول ضاحكين:

- ما بالك تضيق من ضيوف بيت أبيك وأنت رجل ينبت شاربه قريبا!

لا يرد.. نضيف في دعابة:

- ابنتها لا تدري كم لها من العمر؟

لا يرفع رأسه يتمتم:

- لا أدري.. يقولون مثلي.. درزن سنوات..

يشوقنا الكلام نستفسر:

- واسمها على اسمك يقولون؟

يبكي يمسح دموعه بيديه:

- لا أدري.. يقولون.. حسنة..

نضحك، نأخذه تحت أذرعنا نربت على ظهره نداعبه:

- تجد حسنة أم الحسن لها خال أي خال.. يقال عنه فضولي من صفوة الولاية.. كذلك لها خال على الخد مثل كشمشة يقال فلماذا البكاء يا رجّال؟

- تريدون الصدق.. اللغو غير مقبول.. الولد حساس مستوحش لا تأذوه!

• **ذلك النداء:**

يتولى حسان بعد أبيه رعي أغنام موسري قريتنا، ينصرف والده شتيوي لشؤون دنياه، يرزق طفلة، يشتري بقرة، يكدح الليل والنهار لشراء قطعة أرض رسمي، عين الغريبة عليه خير عميم. لكن إنجاب ذرية وشراء عجول وأبقار شيء في قريتنا وانتزاع الأرض مقابل ورق المدينة الملون شيء آخر، يمكن انتزاع عيون فلاحينا لكن هيهات تفلح في انتزاع شبر من أراضيهم، ليأكلها الملح والجفاف والجراد لكن أنى لها تُسلم لطارئ غريب! نهاية الحساب لا يجد شتيوي وابنه زاوية لهما بيننا بالمعنى الذي نعرفه، كلنا يدري أن افتقاد المكان الحميم الصميم يؤدي إلى مشاكل واغتراب لكن ماذا في إمكاننا العمل لغريب وبيننا مِن الأهل والأقارب مَن يفتقد الضروري.

يمر حسان عند أوبة الدواب قبيل غروب الشمس بمثلث موقع الهرية، عند خصر النهر، يتلكأ هناك يترك أغنامه ترعى حول المكان، قرب أكوام الطابوق يفترش الأرض يتأمل الهيكل الشامخ، الأدوات المتناثرة، حارس الموقع الملتحي مشغول مع دراجته عند مدخل المشروع أغلب الأحيان. نأخذ نحن، مَن يدرج على المطالعة والحفظ، كتبنا دفاترنا، نضع في جيوبنا حفنات التمر الكسب، نمضي محاذاة النهر نطالع حتى نصل

المشروع، حسان هناك لا نلقي بالا إليه، يصير جزءا من المشهد، يكلم الحارس غريب الشكل وذاك يقص أشياء لا نعرفها. لا أحد يخالطه غير حسان، ملابسه سوداء مدهنة، لحيته سوداء، حاجباه كثيفان منعقدان فوق عينين كبيرتين جاحظتين، أنفه علامة استفهام.. يجن الليل يخاف الأولاد الوصول إلى معقله وكر الأرواح والأشباح..

ظهريات ترعى دواب حسان على الشاطئ المقابل للهرية، حسنة تجلب له مرقة ورغيف الشعير، نستعرض بطولاتنا حسب الدور في الصعود على سلم الهرية أعلى ما يمكننا، تراقبنا تظلل عينيها يدها من الشمس، نفسح لها المجال ضاحكين، تحمل مع المتراهنين تشرع في الصعود، بعضنا يلبد أسفل السلم يتبيّن ما قد يظهر تحت ثوبها الفضفاض، يصيح حسان بها أن تستحي، يسحبها قويا، ينشب شجار، يفضه تدخل الملتحي المدهن مرة وأخرى..

لحسان منا أصدقاء، بعضنا ينصره عن حق أو منفعة، دائما يجد من يقف جواره. عصريات الصيف الطويلة يتواثب حول دراجة الحارس اسود اللحية، نلحقه على الطريق النهرية، نغمزه نلمزه أسوأ ألقاب:

- الحلاوة لك لنا الطحين؟

- اغسلوا الغبار عن وجوهكم تكونوا حلوين.. بلا طحين.

- والكشمشة.. نحصل عليها مثلك؟
- ادخلوا على امهاتكم في الحمام تجدون الكثير من الكشمش.
- لأمك مشتهاية اسمها عليها حتما كشمش كثير؟
- أمي رحلت عن الدنيا يوم ميلادي تخلصت من قهر الأغبياء.
- ويلي.. الموت يخاف منك أكيد.. لا يلفك معها..

وذاك الشاعر الذي لا يستحي يخرج من بيننا يقف جواره:

- تريدون الصدق.. لغوكم سخيف غير مقبول.. تجورون على حسان!

لا يعبأ حسان من ثرثرتنا إلاّ في أحوال نادرة، همه تعلم امتطاء دابة الحارس الحديد حتى يجيده، يسابق عليها الريح، نحن أبناء المدارس نتعلم نطق الكلمات كما يلفظها المعلمون الآتون من هناك، نقرأ طلاسم الانكليزية نفكك رموزها، نتعرف على علوم التأريخ والجغرافية والحساب، لكن التبرك في ركوب دابة المدينة الحديد لا من نصيبنا، بعضنا يخرج عن طوقه يقترب إلى حسان يلمس دراجة الملتحي- يأتمنه إياها دائما- تصير جزءا من القطيع الذي يرعاه حسان، نعقد أحاديث شتى لا شأن لها والمدينة، ولعبها الحديدية الساحرة، يطمئن بال حسان، نمسك مقودها اللامع نبحث عن وجوهنا معكوسة منفوخة على أجراسها الألقة مثل قباب مقدسة فوق بيارق عزاءات الحسين.

مَن في الصفوف الأولى منا يظهر براعته في عد أميالها المتشابكة، من يحب الغناء والعزف على المطبك يسمح حسان له ضرب أجراسها، ومن لا يحب مشاركتنا السمر يدخله مرغما:

- تضيعون عقولكم والله بوضع المعدن الرخيص أعلى من خيولنا!

حواراتنا الأبدية تصير أدبية، تبقى أبية، تتفرع تصب في أفضلية أي شيء على أي شيء يشبهه، الجواد والدراجة، القرية والمدينة، المدينة والعاصمة، العاصمة وعاصمة غيرها، جدلنا يمتد أحيانا إلى مغيب الشمس، ينتهي غالبا من ضربة قاصمة من حسان:

- مهما يكن.. الجواد يموت في النهاية.. الحديد باق ابد الدهر.
- لكن القرية تطعم الولاية.. نحن أهم.
- القرية تأخذ من الولاية أكثر مما تعطي لها، والولاية تأخذ من العاصمة الباندان والبانسكل و..
- ومن العاصمة يأخذون النفط يبقى الكل هب بياض غير أكابر وخدم.
- تريدون الصدق.. لغوكم غير مقبول.. النملة نملة والحصان حصان!

ينهي حسان النقاش:

- مَن جد يجد على أي حال.

نسكت جميعا، مَن ينوي إكمال دراسته في المدينة تحمسه أقواله، مَن ينوي البقاء في حقل أهله أجداده بعد الابتدائية أو قبلها يراها أباطيل:

- مهما تصطنع المدينة لا تخلق الجواد ولا مثيله.. انظر إلى تبختره!
- وهواء القرية أطيب من سقام الولاية.. وسراق العاصمة ازيد كل يوم.

نتفرق نمضي في سبلنا، نخفي رغبة امتطاء تلك الحشرة الحديدية العجيبة. حسان لا يكتفي من تعلم ركوب الدراجة وتذليل قيادها يطلب من هذا ذاك ورقة، قلما، يستفسر عن حرف وآخر، عن تلك الكلمة، ليس لأبيه أرض تشغله عن ملاهيه، نستعرض أمامه خزيننا من العلم مباهاة أو طمعا في ركوب مطية الملتحي دقائق، شيئا فشيئا حسان يضاهي تلاميذ الصفوف الأولى معرفة، مَن يتظاهر طول الباع أمامه يصير يتردد يرتبك، عديم الأصل يقوى، يخسر معنا مباراة العلوم يكسب مباراة المصارعة، رغم قصر قامته، رغم افتقاد مشجعين، الهرية تشهد من يوم لآخر انتصارا عجيبا له..

يدخل إلى الحلقة فتى طويل يتحدى الجميع:

– هل من مصارع.. أجزمه أحذف منه فعلي بفعل مضارع!

يتردد معظمنا، خسارة أكيدة، صمت، ترقب، ينبري حسان بلا حماس:

– الطول طول النخلة.. العقل عقل الصخلة.. مَن تخيف!

يضحك كثيرون، مستهزئون، الطويل يبقر بطنه من الضحك، يرفض الاستجابة لتحديه، حسان يصر، هذا يضحك، يشتبك حسان مع الطويل، الطويل يدفعه، حسان ينحني يصير كرة، الطويل لا يدري من أين يمسكه، حسان لا ندري كيف.. يمد ساقه يقلب الطويل.. بم! يرمي الطويل على الأرض..

مصادفة على الأغلب! ينهض الطويل ضحكته تقطيبة، حسان لا يتراجع يستعد لجولة أخرى. الطويل ينفض التراب عنه حائما مثل عملاق، حسان يحني قامته القصيرة مستعدا لاشتباك، ويلاه.. يشتبكان مرة أخرى، حسان كرة ثانية، قفزة سريعة يتدلى من رقبة الطويل، يحاول قذفه إلى الأرض، حسان كماشة تمسك رقبة خصمه، الطويل يستنفر كل قواه، حسان في حركة بارعة يجر ثقله رأس الطويل إلى أسفل، يستند على الأرض بقدميه، يدفع الطويل إلى الأرض عبر ساقه.. يسقط الطويل!

في حسان شيء خارق، يتهامسون:

- هو يخفي ماله.. كل حاله عنا!

- بالغ راشد رغم صغره قِصَره.

بعض البالغين يوجه أسئلة له للتأكد:

- قل لنا ما هو لون السائل؟

- كم مرة يخرج منك في اليوم؟

- أي الدواب تجربها؟

- الحمارة الصغيرة عند صعود الشهوة فيها كيف يصير بوزها؟

حسان مستغلق تماما، لا يكشف سره، لا نعرف حقيقة حاله عمره. ماذا يخفي ذلك القصير ابن الغريب؟ نتكلم عنه عند ضفة النهر مساء:

- ماذا يهرف مع حارس الهرية الملتحي مدهن الملابس؟!

- لماذا يلح على تعلم الحروف والأرقام وأغلبنا يهرب منها يكرهها؟

- هل هو بعمرنا أو انه رجل قرّي يظهر صغير السن والقامة؟

- وحسنة ابنة زوجة أبيه تحل عليه حسب شرعنا أو هي محرم؟

- يا جماعة.. له شيء معها ونحن بُهل غافلون لا ندري؟
- فعلا.. يطيل النظر إلى شامة خدها.. يتركها تصعد الهرية في غيابنا.. يشجعها يصعد أمامها إلى الحلقة الثالثة.. غرامياتهما واضحة!
- تريدون الصدق.. لغوكم غير مقبول.. غراميات ولا حراميات جنابكم!

- **الكلمات الأخيرة:**

يعلموننا في المدارس إن أجرام السماء تدور، الفصول تتعاقب، الكائنات تحن إلى أزواجها في الربيع، نقرأ إشعار الملوح وعنترة، نسمع عن نداءات الحب وحكاياته، نعرف عن آبائنا وأجدادنا قالوا قصائد فيمن أحبوا، شأنهم في ذلك شأن عباد الله، رغم ذلك نرى عند ظهور العاشقين بيننا أفعالهم عيبا رجسا من تدبير شيطان. معلوم، أغلبنا يخفي عشقه سرا عن الآخرين، تلك شريعتنا نتفق لا نتفق عليها من غير إفصاح، تبقى قوانيننا يكتبها محبون على أرضنا بدماء.. حسنة حسان ليسا استثناء.. في انصياع للنداء.. في قطف الأزهار والإخفاء..

حالهما حال مَن يلتقي صبيةً صدفة على طريق خالية، يرتبك الاثنان، نظرة ضارية يتبادلان، يدفنان رأسيهما بالأرض في

سبيلهما يمضيان.. يولد حبهما خلسة.. فتانا يقضي لياليه مرمضا من الشوق، فتاته تنتظر دقة الحبيب على الباب تعزف الأغنية الخضراء في توق..

ينتبه لهما عابر سبيل يتغير الحال، لا يرتبك أي منهما، تتجه نظرتاهما إليه تتوكآن إلى مصب، العابر يصطاد ما ليس في البال في نظرتيهما، الفار يلعب في العب، الطريق خالية إلاّ منهما يعني متواعدان، يذهب العابر يشيع الخبر جهارا نهارا، فلان يواعد فلانة على ذلك الصوب، يشتعل الخبر نارا في هشيم، يتلوى الخبر على الطرقات يصدقه غشيم، فإذا هما في شرك الهوى حقا واقعان، في ما يقدّر لهما من قَدر خفي لا محالة.. عن صدق أو بهتان..

حسنة وحسان، قصتهما من صنعهما أو من صنع إنسان آخر.. غير معلوم، حروف ثلاثة لإسميهما مشتركة تشبكهما بداية، ينسجها لاحقا على نول تخيلات أو أكاذيب أو وقائع مَن لا ندري تماما، حسان يختلي بالصبية بين صناديق المشروع، يسرحان مع القطيع إلى أرض نائية، يفترشان العشب في فيء شجرة، يتضاحكان.. يتدافعان.. ذلك أقصى ما في قدرة ناس قريتنا احتماله من فلتان خارج الهداية..

في البداية الخبر يحوم خارج دائرة اليقين، نتناقله همسا، نكاد ننساه ثم يقال إن الأب شتيوي بعد طلوعه من بيته كعادته مبكرا يتمهل عند الباب، يرد طرف يشماغه إلى رأسه يشم رائحة نجاسة من مكان قريب، يتلفت، يصعقه المشهد، من شدة ارتباكه تمسحها يده عن بابه حالا، يتطلع خشية أن يكون أحدهم يراه.. يرجع إلى البيت يغتسل، لا يخبر حرمته عن المعلن والخفي في تلك الشناعة، ربما في الأمر وهمة أو غمة، عدو يضمر شراً يشهره فوق رؤوس العالمين..

يومها يطلع مهموما إلى الحقل، لا يتمكن البقاء هناك أبعد من الظهر، يرجع إلى البيت، منه إلى المقهى..

قبل غروب الشمس لا تجد أحدا تحت السقيفة، مرة ثانية يعود إلى البيت. قبل أوبة الفلاحين والرعاة يقصد المقهى ثانية يتخذ مكانا على حصرانها بارزا يطل على الحاضرين، لعل أحدهم يلمّح، ينوّه، يصرّح، يصرخ عن مكروه جلل يقع وهو لا يدري، لكن اليوم يمر.. لا شيء يشفي الغليل.. لا شيء يقال يستحق الذكر!

حسان يواظب على رسم الحروف بعصاه على سطوح المياه.. على مساحات الطين.. مياه النهر تمسحها.. يكتبها.. تمسحها..

يدب مع قطيعه مسافات طويلة إلى الشاطئ مقابل المدرسة، يترك الخراف تلتهم الأعشاب يأتي يمد رأسه من شباك الفصل، نضحك، نلغط، نألفه، نعتاده، معلمنا يوجه له أسئلة مثلما لنا:

- عصاك حسان أي حرف؟

- الألف استاد.

- والأجانة والخبزة؟

- ن استاد!

- عفارم.. وحرف التاء؟

- مشحوف طالع منه راسي وراس أبوي..

جالسا كل يوم على إطار النافذة يرصد حسان ما يجري على السبورة بعين.. بعينه الأخرى قطيع مخدوميه.. مَن دق بابنا.. رأيت حلما جميلا.. المدينة الكبيرة صاخبة.. يتعلمها مع غيرها أسرع من البرق، يقرأ حتى في كتاب معلمنا "غادة الكاميليا" سطورا، معلمنا لا يتردد يطلب إجاباته على أسئلة يعجز صفنا في رد عليها، ينجح اغلب المرات، يكرهه بعضنا، يودّه بعضنا الآخر، حسان يعامل أولئك وهؤلاء في طيبة واحدة.. في ذلك سر نجاحه نتأكد أخيرا.

لنسواننا وعجائزنا حق الكلام، غالبا هن أول مَن يكتشف يكشف سرا، لهن فواتح أخطر الحكايات والأحاديث، يجلسن

على عتبات البيوت نهارات الصيف القائظة يرضعن أطفالهن، يغزلن الصوف، ينظفن الرز، يقزقزن الحَب، يتبادلن النكات، الأسرار، يودعن جارة كلمة، يحلِفن يحلِّفن بالقرآن والفرقدين على حفظ العهدة والسر، تلك تبوح به لأخرى تستحلفها بدورها لحفظ السر، الحبة تصير قبة في الأطراف الأخرى من القرية، تصل الجميع قصة حسنة وحسان. فلانة ترفع على ساحتها أم حلانة تكبس:

- لك عيني أصعد إلى السطح لملج الطين على خزين الحبوب فإذا المضروب على قلبه حسان على السطح الآخر يلصق ماله لصق التمرة على ثوب البنية حسنة.. فوقه.. يعطيها وردة جوري تشمها..

- ويلي ويلي.. ونقول طفل وطفلة.. هكذا أشهراه.. بلا حس.. بلا نفس!

- يوشوش في أذنها كلام خُبَرة.. يخض يجفل البقرة..

جارتها لا تسأل كيف تسنى لها سماع "الوشوشة" ما يدريها تجفل لها بقرة، تحثها لمعرفة المزيد:

- ولك سمّعينا كلمة كلمتين من الذي قالوه.. انتِ صايمة بالعيد!

- لك عيني.. لساني يحترق لو يتحرك ينطق..

تهبط الجارة إلى الدرب تبحث عمن تعهد إليها بالسر، تنفجر لو يمر الظهر من غير شريكة تقاسمها الخبر، ترش الفلفل والبهار عليه تزوقه تلونه كما تشاء، تهديه للصدوقة الخلوصة من صويحباتها..

في يوم يومين تصل وقائع من أغرب واقع إلى أقصى طرف من قريتنا، إلى الصوب المقابل من الشط وافية بكل التفاصيل، لا نحتاج صناديق ثرثرة لأسماع وأبصار تتباهى بها الولايات تضيف الدسم عندنا لطبخة الأخبار، جلاس المقهى يكملون الناقص من دخان النارجيلة، اهم حوادث الزواج والقتل والسطو تمرق بمجراهم أسرع من ماء النهر في السواقي، فكيف الحال والحكاية عن حب عراقي لا يقهر..

نرى وجوها من الصوب الآخر للنهر في مقهانا، يفترشون الحصران في صمت، يتطلعون إلى الداخل والخارج، ينصتون لما يُقال يُنقل بين الأطراف والزوايا، يتردد همس:

- هم أقرباء الغريبة.. زوجة أبي حسان!
- ما طلبهم ما رغبتهم عندنا؟!
- جاءوا يستطلعون.. يستوثقون.. دم يُهدر لو تصدق الظنون.
- واضح.. للفضيحة رائحة وصلت جزيرة واق واق!



▪خبر ١٣

جزيرة واق واق

تشير يد حسنة إلى ساحة البيت المبللة من مياه الأمطار تنبهه:

– حسان.. شوف.. جاء أبوك!

أمام باب الحجرة تدب ثلاث بقرات وحصان إلى مهاجع تحت سقيفة مقابلة يعلوها حطب رطب، في رأس كل دابة حبل طويل منسحب خلفها بطيئا. لا يعير حسنة انتباها، يمسح جمع يده مخاطه، يزيح شعره الأسود المنسدل على جبهته. يحشر في جيب دشداشته الجانبي حفنة أخرى من التمر الكسب، يسقط بعضه يغيب في عتمة أرضية الحجرة، يرفع قدميه يلامس غطاء التمر المغبر داخل البرميل.. يغرف حفنة أخرى..

تشير حسنة إلى خارج الحجرة:

– شوف الدنيا.. مدلهمة مثل وجه العفاريت هناك.

الريح عالية تطوّح سعف النخيل تحرك هاماتها مراعي خضراء هائجة، الزرقة الكامدة فوقها تبدو بين السحب المتجمعة بعمق البحار البعيدة، برحابة صدرها وسعتها، يتطلع

حسان إليها، كشمشة خد حسنة الصغيرة لا تسقط أبدا في الفم، وجهه المدور كآبة حتما، تزيد لمعان عينيه المتسائلتين. شفتاه الرفيعتان مزمومتان وشك بكاء.. لكنه لا يبكي..

يذوي النور مستسلما لظلمة الليل الزاحف، يواصل ملء جيوبه بحفنات التمر اليابس.. تصر حسنة على إقناعه:

- لا تصدق خوفي عليك.. والله تعمى عيوني من البكاء لو تترك ديرتنا.

- أنتِ إبنة حرمة أبوي لا أختي لا إبنة عمي.. عجبا خوفك عليّ!

- أختك ما أختك.. أمي تصير أمك أبوك يصير أبوي من نزلنا ديرة دولاب الهوا هذي.. أنت حبّاب افهم.

قرب سقيفة الدواب والدتها تميل إلى الخلف أمام التنور المتوهج مثل الصدر المشتعل من نيران رغبة وغضب، حول رأسها ورقبتها فوطة بيضاء متسخة، ذراعها في جورب عسكري قديم مبلل، تناور لإخراج أرغفة خبز الشعير المتبقية في التنور.. يتجاهل حسان كلام حسنة، يتناول من الكيس المجاور ثلاثة رؤوس بصل صغيرة يدسها في جيب سترته المثقوب.. تضع يدها على كتفه في إشفاق:

- تقول أمي.. المركب ملعون مسحور مرمي هناك على جرف دولاب الهوا قبل مجيئنا لهذه الديرة.. مَن يحاول إصلاحه استعماله تخرج الأفاعي الجان له من شقوقه تلتف عليه تأخذه إلى قاع النهر.. تطعمه خراء الضفادع حتى يصير اخضر كله.. يطلع أو يخرجونه بعد سنين شجرة على الجرف.

يمسح جمعه عينيه يتطلع مكفهرا إليها، نظرته لائمة حادة شديدة:

- المركب يصلحه ملتحي الهرية الغريب يشعل الحرمل فيه قدامي يطرد منه الجان يجهزه لإبحار إلى بلاد الواق واق.
- الغريب مشبوه لا تصدقه.. تراه يخدعك يبيعك إلى الكاولية.. إلى صاحب مطعم جان يسوي لحمك كفتة..

يزيحها عنه يرفع آجانة الخبز يأخذ رغيفين باردين رطبين من طبق الخيش يطبقهما يحشرهما في جيب السترة الآخر.. تلح هي:

- تقول أمي المركب لا يصلح حتى حطب وذاك الملتحي الغريب أصله من الجن.. كيف ينام الليالي مع الأفاعي في المركب أحيانا تتركه يفعل هناك ما يفعل..

يربط قيطان حذائه المترب:

- هو صديق، يعرف كل شيء، يشرح أحسن من المعلم، أسأله لماذا لا يخلص ماء النهر يقول يأتي من مكان تكثر فيه الجبال والثلوج والظلام يعبر مسافات طويلة بلدان كثيرة حتى يصل بلدتنا منها يجري إلى أخرى، ينتهي عند بحر كبير، هناك سفن كثيرة مراكب اسماك ودخان..

يسكت، أفكاره تهرب، أفكارها مشتتة، لا تدرى ما تقول، تهمس:

- هو ساحر أكيد لا تصدقه. أمي تقول الذي يترك ديرته يصير مثل الحجر المرمي إلى وجه السماء، أوله آخره يرجع أرضه، اسمع الكلام. كل ديرة دولاب الهوا تحبك.. الزعل بلا فائدة.. يأخذك الغريب يتركك وسط الدخان تضيع..
- أنتِ لا تحبين حتى الدواب.. مثل أمك.. مثل أبوي.
- شواربك بدأت تطلع مثل الشعير.. احلِف بها على صدقك!
- وأنت صدرك طالع مثل التين.. احلفي به.. على صدقك.

يلف ساعداها صدرها، تنظر إليه طويلا:

- يسمعك خالي فضولي تحكي عن صدري يذبحنا!

وجهه لما يزل مكفهرا عنيدا، كلامهما حفيف يسري بين أشجار، تأخذه ريح هاربة إلى لا مكان. عيناه تتطلعان بين حين

وآخر إلى ساحة البيت، مليئة ببرك الأمطار، ببحور صغيرة كثيرة، تعكس لون السماء القاتم. يذكّرها هازا سبابته:

- لا تنسي.. تفتني عليّ يعلقك الله يوم القيامة من جفونك في نار جهنم.

يزرر سترته على دشداشته، تتعكر حسنة، تتأكد هو يتهيأ لمغادرة الحجرة:

- أدري. الفتنة أشد من القتل.. خاصة فتنة الحرمة يقولون.

- لا تدوخيني.. لازم أطلع..

خارج الحجرة الريح لا تزال تعبث بسعف النخيل قويا، تهزها أمواجَ بحرٍ خضراء تغرق حتى سفينة السندباد.. تلاطفه:

- قل.. مَركب.

يتغلب على تردده، على إطراقته في ظلام الحجرة، ينظر إليها.. تكرر:

- قل.. مركب.

نظرته حائرة، يكبله صمت، يمسح جمعه انفه يسألها هامسا:

- حلوة أو ما حلوة؟

تشبك ذراعيها الرفيعين قويا على صدرها الممسوح النحيف:

- حلوة؟

في توقع.. من غير رغبة في الكلام يستجيب لها:

- مركب.

تتلامع أسنانها وعيناها، يتراجع الخوف في مرح تسجع حالا:

- تأكل حفنة ذباب مركّب.

لا يتبسم، لا يبدو زعل على وجهه، يلومها منطفئا:

- قلتِ حلوة.. أنتِ أيضا إبليسة مثل غيرك.

تتلاشى ابتسامة حسنة، تقرفص عند قدميه عن احساس ذنب، جوارها تختة خشبية صغيرة، تجلس عليها، تجذبه من دشداشته، لا يقترب. تبرر:

- أريد إضحاكك.. أنتَ زعولي اليوم.. زين قل شامة!

- تتباهين.. كشمشة خدك!

- لا والله.. هالمرة حلوة.. تستمر تلعب وإياي نتعلم الشعر.. قل شامة!

- شامة.. بس لا تتعلمي براسي الحجامة!

- لا ما حزرت.. الصحيح.. الصبح أسلق لك بيضة نعامة.

- نعامة من جزيرة واق واق؟!

- أروح لك أبعد إذا تعقل.

- يعني أقبل صياحهم عليّ.. أقبل أبقى راعي غنم؟

- لا تذكر سوء عن أحد تتجو.. الله يرمي العاق إلى نار جهنم.. نسيت المسطر في القرآن.. لا تقل لهما أف وقل لهما قولا كريما صدق الله العظيم!

ملامح وجهه المعذب تذوب في ظلمة الحجرة، يغالب عَبرة:

- إبليس ونص الذي يؤذي.. إبليس ونص.. إبليس ونص.

يرتعش كتفاه يدفن رأسه بعيدا عنها..

تنهض تضع ذراعها النحيلة على كتفه، يزيحها عنه. تقول مخذولة:

- أمي تقول أرواح بنى ادم فقط باقية تروح إلى الجنة أو إلى النار.

تراقب ساحة الدار، أمها أمام التنور ترش جوفه الملتهب قطرات ماء من الإبريق. يتأملها حسان في ألم دفين، نور أسود يختلج في عينيه، خصلات شعره تنحدر على جبهته. يقول:

- والصياح الذي يطلقه بوش البارحة وأبي يضربه.. كاد يهلك المسكين.. اليوم يموت من الجوع في محبسه ذاك.. ينوي قتله..

يلوّح كفه مشيرا إلى كوخ صغير غارق في الظلمة فوق سقيفة الدواب..

لا طائل من محاولات أمها إخماد سعير التنور، الدخان يتصاعد ينبئ عن احتدام جوفه المخيف، تواصل أصابعها رش الماء من الإبريق بين يديها.. توضح حسنة أفكارها شاردة إلى أعماق التنور:

- بوش نام عندما سطا الحرامية على بيتنا البارحة يستأهل عقاب عمي أبوك.. أبوي.. أبونا..

حسان يتجاهل كلامها في الظاهر، لا ينتبه، هو الآخر يراقب أمها في حذر، تحمل طبق الخبز إلى الحجرة الأخرى خلف عريشة العنب، جمعه يمسح انفه يمضي إلى السلم المحفور في نصف جذع نخلة، ممدود جوار معلف الدواب إلى سطح السقيفة المغطى بالسعف الرطب. تتبعه حسنة قفزا.. تقنعه في رجاء كأنه رجلها أو طفلها الموعود بعد سنين.. شابكة ذراعيها على صدرها من البرد:

- إلى أين تعطي وجهك والليل حولك في كل مكان.. اسمع الكلام.

الريح تعصف تهز هامات النخيل، قاماتها، تبدو عفاريت مقيدة. يغمغم حسان ممسكا جانبي السلم الجذع يرتفع عليه:

- هارب من ديرة الدولاب إلى البحور السبعة إلى واق واق.. هناك لا يضربون لا يشتمون لا يتنابزون.. هناك الأشجار تتكلم.. هناك بني ادم يصادق الحيوان والطير.. مثل طرزان.. غيره..

يصعد إلى السقيفة، تهفهف الريح أذيال دشداشته الزرقاء القاتمة شراع مركب مبحر في ليل عاصف اسود. حسنة محذرة كاتمة فمها بيديها:

- انتبه. صديقك الملتحي يسلّم بوش البحر يسحرك مثله. اسمع الكلام!

لا يهتم لها.. هي ليست أخته.. ولا حرمته.. ولا أمه المرحومة.. تنبهه:

- مصيبة إذا شافك أبونا شتيوي.. حسان اسمع كلامي!

ينحني يتمتم مثل حالم خفيض الصوت:

- البوابة انسيها، آخذه انزل على جذع النخلة هناك إلى الخرابة وراءنا..

يخطو خطوتين على السقيفة إلى النخلة النابعة من ظلمة عراء الخارج.. صيحة عالية مفاجئة ترتفع من ساحة الدار:

- إلى أين تولي، إياك تفتح الباب له تعطيه لقمة خبز. أبوك راجع من القهوة بعد دقيقة. يطهرك طهور المنجل لو تعارضه..

حرمة أبيه تحمل الفانوس النفطي قصد تنظيفه، قرب عمود عريشة العنب تمسح زجاجته من السخام تحت الأنوار المتبقية في السماء، تتطلع إليه في انتظار نزوله من هناك. خوف

وشفقة بلا حدود في عيني حسنة، تنسحب إلى الخلف تفسح المجال عسى ينزل. يبقى حسان فوق السقيفة، وجهه مكفهر أشد قتامة من السماء:

- أريد اشوفه.. محتمل يموت..

الفانوس بين اليدين مهجور، لا نور يبدد ظلمات، الحرمة في لا مبالاة:

- تجويع يومين لا يميت أو لا يأكل أذنيه عند التقديم.. وصل أبوك.

تشير يد حسنة النحيلة إيماءة سريعة سرية تحثه على النزول، حسان في عليائه حائر تجتاحه الريح، تتأجج فتيلة الفانوس بين يدي حرمة أبيه، يرتعش النور، يزحف ظل اسود إلى ساحة البيت من الخارج، عند منتهاه يظهر من فتحة البوابة شتيوي ماردا..

يرمي يشماغه المعفر على الحبل الممدود بين السقيفة وتعريشة العنب، يتطلع إلى السماء يدمدم خشن الصوت:

- الهواء شرجي.. الدنيا تمطر قريبا.

والحرمة تخفض فتيلة الفانوس يشحب النور، تحمله إلى الحجرة، يسود الظلام..

يتناول شتيوي المنجل من حزامه، يتلامع في الليل صاعقة، يصعد هو الآخر إلى السقيفة، يتوجه إلى الكوخ الصغير، يفتح بابه المقفل بسلك صدئ.. نباح ضعيف يصدر من الداخل.. يأمره أبوه:

- إنزل سريعا إجلب جمرة من التنور.

حسان يتحجر.. يبتلع ريقه.. يغمغم متوسلا:

- لا تسوّي الذي نويته..

يصيح أبوه به:

- انزل بلا لغوة فارغة.

يجرجر حسان حاله، تختفي حسنة في مكان، ساحة البيت فجأة واسعة لاسعة، صحراء بيداء، يضيع في متاهتها. يجري إلى الحجرة لائذا عند حرمة أبيه.. أول مرة ينوي لفظ "يمّه" بدل "مرة أبوي" أو "أم حسنة" المعتادة له:

- يمّه.. أركضي خلصيه.. أبوي راح يميته..

أم حسنة تحمّل وجهها المتعب طمئنة زائفة:

- عيني اهدأ، لا يموت، يبتر أذنيه يعطيهما له، يأكلهما مثل غيره من الجراء المخنثة، عمل يخليه مثل السبع تخافه الحرامية.

يهزها من ذراعها، في صدره صيحة عنيفة قد تسمعها الدنيا كلها:

- يموت.. جرو صغير لا يتحمل.. يسيح دمه إلى كل مكان..

الحرمة مشغولة مع مد البساط قبل جلب صينية العشاء، ترد بلا اهتمام:

- جمرة التنور تقطع نزيفه.. لا هو أول ولا آخر جرو يطعمونه أذنيه، تحرك.. لا تكن مثل البنات محب دلال ولغوة..

يصرخ هذه المرة بقوة.. يكاد ينفجر في بكاء:

- امشي خلصيه.. إلحقيه.. ما بقى غير نتعارك أنا وأبوي!

ينفد صبرها تدفعه بعيدا:

- ولّي عني.. لا أكلم والدك لا ابتلى بلوى معه.. ولّي من هنا.

صياحها تضيّعه صيحة رجولية قوية آتية من السقيفة. تعقب متلهوجة:

- اركض، والدك يدعوك، يقلب الدنيا علينا إذا تتأخر عليه..

خارج الحجرة الليل أسود، ثوب حزن. الجمرة يحملها من التنور في كاسة ثريد الجرو، مضطرمة، قلب مقهور. أعلى السقيفة يصيح أبوه:

- تعال ساعدني في مسكه!

يسلم أبوه له الحيوان، يمرر حسان يده الصغيرة الخشنة على رأس الجرو الناعم يطمئنه، يناديه:

- بش بش.. لا تخف.. بدل الطهور..

يئن "بش بش" لا يفهم الجميل، يلوي رقبته يتمسح به يطلب الدفء، يرفع بوزه، يتطلع في عيني حسان نظرته دامعة رهوة إنسانية، لا تشبه نظرة إنسان، يطيل نغمته رفيعة ناعمة مبحوحة، يهز ذيله في قلق من تقييد حركته، من إرغامه على امتثال..

يمسك أبوه أذن الجرو الأولى يحزها منجله الحاد، ينز الدم يطفر في الظلام ماء ينبوع اسود.. ترتخي يدا حسان الصغيرتان وشك التخلي عن كل شيء، نظرة أبوه الخاطفة السريعة إليه تتركه يواصل إمساك الجرو.. حتى يتم نصل المنجل القاطع قطع الأذن الثانية.. حتى يتم قطع الجزء الأكبر من الذيل..

ينبح الجرو ناعم الصوت في البداية، يتخاذل، ينكسف أنينه في هدوء، يخفض رأسه يلملم أطرافه الأمامية حول أذنيه، يئن صوته يخرج من معدته، تُقدم أذناه له، في انتظار يأكلهما ينظر الجرو إليهما في استخذاء، يجر قوائمه إلى داخل الكوخ، الدم لا يزال ينساب حول أذنيه نهري جحيم..

ينزل أبوه من السقيفة..

يبقى حسان في ظلمة الليل يحدق إلى كوخ الجرو بوش..

يخطو إلى بابه الواطئ.. يتوقف ينظر إلى الجرو، الجرو بش بش يرفع إليه نظرة آدمية، في عينيه بلل، لزوجة..

يحني الحيوان رأسه إلى أسفل.. يحك جذري أذنيه على الأرض..

يتقدم حسان إليه ينكفئ أمامه يمسد ظهره، يقتطع من أذيال دشداشته شريطا من القماش، يلف رأس الجرو.. عمامة صغيرة.. ماذا تريد أكثر.. يحمله بين ذراعيه ينهض.. لا تحزن بش بش.. اليوم بعد سنة يخلص القهر..

نداء حسنة يأتيه من ساحة البيت خفيضا، تخشى إيقاظ الصمت، ينظران واحدهما إلى الآخر، هو على السقيفة وشك صعود إلى سماء.. غرق في ماء.. هي في الأسفل تطلب مغفرة ذنب ليس لها فيه نصيب.

أخيرا مهزومة النبرة تدعوه:

– أمي تطلبك إلى العشاء..

– أمك أبوي عشاق ليل تقول القرية.. الحقيقة.. الكل عشاق دم!

- قلبك حنين.. لا تليق بك القسوة..

- تقولين ذلك لي أنتِ!

- لو اتبعك كلام القرية يصير أنجس.. تريد أهج واياك؟!

لا يرد.. يرتبك.. تغلبه أخيرا.. تتلاشى أصداء خبالاته خيالاته، ضحكه، ثرثرته مع ذلك المدهن الملتحي حارس الخزان الكبير عند مثلث خاصرة النهر.. هل يعود إليها.. رجلا يكبر في ثوان عن صبي لم يعد موجودا..

يستدير حسان إلى نخلة العراء، يغيب مع جروه في ظلمة الخرابة وراء الدار.. تناديه.. تناديه.. لا أحد يرد على النداء. ترتقي السلم الجذع إلى السقيفة سريعا، تبحلق في عتمة العراء.. تطلبه مرة أخرى..

لا أحد يرد عليها.. تهمس في وجه الليل في هدوء حذر:

- أمي تقول جزيرة واق واق مسحورة، طافية على الماء، كل يوم تظهر في مكان، لا تسكن فيها غير أشباح شفافة مثل الهواء.. ليس لها عيون.. لا يمكنها الكلام..

تضيع كلماتها في الظلمة...



▪ خبر ١٤

حفلة دم

والقيل قال حرائق تشعل المجالس والبيوت يفاجئنا اختفاء حسان من القرية! ننتظر أياما، مقعده عند نافذة الفصل شاغر، القطيع الذي في عهدته عن شاطئ المدرسة غائب، عند مشروع الهرية لا يرابط غير الملتحي مدهن الملابس، على ديدنه اهتمامه دراجته، نسأله عنه يدعي لا يدري، يتطوع للجيش، يسحبون مواليده إلى الخدمة، يشتغل في الولاية، لا يعلم باختصار. يواصل شد الصامولات ينظر إلينا من تحت حاجبيه في اتهام، عن شك. حسنة نراها نادرا في الطرقات، صدرها الكوكب الدرّي يكبر من حجم التين إلى الرمان الريان، يتحرك يتواثب على فلك حيران، نتهامس في خذلان كم يعلو الرائج عنا في موسم فتان:

- الفضل من مياه نهرنا الخصبة.. أو من يد حسان العابثة الرطبة!

تساؤلات كثيرة لا تشفيها تقديرات، تخمينات، بعضنا يُسمع حسنة "حسج" الكلام عسى وجهها ينبئ عما وراء الغيب والغياب:

- راح الولف خلاني وحدي.. لا صبر لا تمر بقّى لي عندي!

تلف حسنة فوطتها تمضي في طريقها غير مهتمة، الملعونة سليلة الأبالسة تزداد حسنا وملاسة، تحرق قلوب الشبان والكهلان، قصتها مع ابن زوج أمها تنثر حولها النور والريحان، قوامها معجون رغبة، نظراتها مشعة هاربة، والأقاويل سيارة طيارة، خارج المقهى عند النهر ينسجون:

- الغريب ابن الغريب حوافره تدوس البنت، يتركها إلى ديرة نيته محتارة.
- تراه في الولاية يخدم يحلم. سن ذهب دشداشة حرير بنطلون مصون.
- إيه هناك يتفرج. سافرات سينمات شوارع طويلة عريضة ينتظر الفرج!
- تريدون الصدق.. لغوكم غير مقبول.. أتمنى لو انا أتبعه أمشي واياه!

أقربنا إلى حسان يقصد بيت شتيوي ناويا الحصول من أبيه على جواب شاف. يستقبلهم الرجل مطأطئا يرفع رأسه إلى بندقية عتيقة معلقة على الجدار، وجهه غائم، صوته نائم:

- حسان نزح إلى الولاية من غير رضاي، بيتي لا يعجبه، القرية لا تسعه، شغل معامل التبغ والملح والمقاهي الكثيرة هناك أحسن له!

شرحه لا يبدد الغمام، لا يفي المطلوب والمرام، يعلق كل شيء على حلم ابنه، على شغل الولاية، على تكوين نفسه، على دراسة مسائية..

الكلمات الأخيرة تترك زائريه بعد مغادرتهم حيارى.. يستنتج أقربهم إليه:

- حسان إذا لم يرتكب الحرام معها هو يخاف ارتكابه. لذلك يهرب.

- **بعد ذلك التاريخ:**

لا يطفئ رحيل حسان الأقاويل، تزداد اشتعالا بعده، لهيبها يرتفع إلى حمرة الرمان حين ينضج في مكامنه الدفينة، شبان يحومون حول بيت شتيوي ينتظرون إطلالة حسنة، لعلهم يفوزون منها متعة، لطعة خاطفة من حسنها، كلمة، ابتسامة، حلم في لقاء. الملعونة جاحدة تنكر فضل قريتنا في شحذها، في لمعانها كوكبا دريا لا يُخفى حتى على عميان، بخيلة تحجب ملاحتها الباهرة عن عيونهم الساهرة، عن عباد الله، واهبها في سخاء لمن شاء، حتى إلى خلق بائرة حائرة.

روحاتها غدواتها إلى أقربائها وراء أحراش القصب على الصوب الآخر من النهر، إلى الولاية رفقة صويحباتها قصد شراء حاجة محتاجة، إلى الحمام العمومي هناك في زيارة حيث يشتغل خالها، حتى اعتكافها في البيت حينا وآخر، كلها مناسبات تصير موضوع مناقشات لا تهدأ عند الشغوفين بالأسرار:

- الحسن إدمان.. في غيابها خوفنا يكبر.. مثله قد لا تعود لا تظهر.
- تسأل ست الحسن عن مؤتمن تسيّره إلى الحبيب.. غيابات.. عذابات.. والحاصل؟
- في الغيبة يُخفى شيء غير حبه لها وهي له. لا أصدق يتركها نهائيا.
- يعني الموضوع يا حبيبي طال غيابك.. أو عيشة الولاية أغلى.. حلمه!
- وعده لها العودة تقول النسوان.. بعد فلقة تطول تقصر لو يشاء الزمان.
- حرمتي تعرف سر حسنة.. البنت تنوي الهرب إلى الولاية وراءه.
- عشق حسان خبال.. انتبهتم إلى انعزاله اعتكافه عن الكل؟

- العشق وصال اتصال أَفهم.. ينقلب إلى هجر.. حَجْر.. العوذة!
- لو حسنة بادلته العشق رقصت له اعطته عسلها انتهى امرهما..
- قلنا لكم.. هجرها إلى الولاية خوفا من فضيحة.. من قتل..
- وأنا أقول.. هجرها حبا في الولاية.. في الملاهي هناك..
- تريدون الصدق؟ لغوكم غير مقبول.. لا يعرف الخبر اليقين عن الحاصل والمحصول غير حسنة وحسان.. كفى غيبة وبهتان!

تحت الكلام رغبات دفينة، الكل يتمنى الحلوة في قريتنا الصغيرة، يقولون العالم يصير قرية صغيرة، مضبوط، والفضائح سلاح جرّاح، تتكرر واقعة النجاسة على باب بيت شتيوي بسبب ابنه حسان! قبل ذلك التأريخ كل ما يحدث في علمنا غير أكيد، تآويل أقاويل نسمعها من هذا ذاك نغذيها من خيالنا تنشأ حكاية حسنة وحسان في القرية تنمو حتى وقوع الكارثة بعد ذلك أمام أعين العالمين.

يشيع البعض أن حسنة تشد تحت ثوبها حزاما على بطنها تخفي كبره وامتلاءه، في تأكيد على المتوقع المنتظر من غياب حسان، البعض الآخر يرى ذلك فرية، حسان يعرفونه جيدا

يعرفون خلقه، أدبه الجم، يعرفون شتيوي وكيف رباه أفضل تربية، منذ أعوام عديدة لا يصدر منهما غير الطيبة والاستقامة، كيف لابنه ارتكاب الإثم والخطيئة وعاداتنا أيضا سيف مشهر على الرؤوس.. لا.. لكنه يستجيب يؤكد ذلك البعض الغادر للإمارة في غفلة عن الناموس..

تتضارب الأقوال بين مستغفر ومستنكر على حسان فعلة شنيعة، بين نادم وناقم يثرثر عن تلويث سمعة ديرتنا الأنصع بين الديار النامية أو النائمة على ضفاف الفرات منذ يحتفر مجراه حتى اليقظة على دوي الفضيحة..

في زحمة الأقاويل يتدحرج الخبر المثير، عن وقوع عين الملتحي الغريب على جسد حسنة في وضع مريب، يتأكد من حبَلها في مشهد عجيب، يراها عارية يقال من وسيلة تثير ألف سؤال وسؤال، يقال حتى ينصحها عند الهرية ترقص أمام حسان قصد تسبيه، مَن يطلق العِلم من الغيب، لماذا الدفع نحو العيب، داخل السر سر، تساؤلات الناس تستمر، ألفة، صداقة، تُتلف، تُدمر، عداوة من ذلك تثمر، وراء ما يحدث هدف بعيد، قريب حسنة في مكيدة، أو لعبة خبيثة أكيدة، يسمح للملتحي الوصول إلى السر المصون، لماذا الملتحي المدهن لا غيره، كيف يتسنى له ذلك ونحن غُفل بُهل، أسئلة تشغلنا إلاّ سؤال هل الإشاعة واقعة.. اختلاق.. قصد بناء.. نفي واقعة أكبر تسبي

بقية أهل العراق!.. كأن يكون الملتحي هو مفترع حسنة.. و.. يُلبس صديقه حسان التهمة!

الشائعة، أية شائعة، قد تكون صحيحة أو.. كاذبة، بعد حين قد يتأكد العكس، وقد يثار سؤال عن صدقية الفحص، عن دقته. المختصر المفيد نشعر نحن نعيش لا ندري جريمة لا تغتفر، مبهمة، متقنة، لها قصتان أو أكثر، واحدة يسردها مجرم يسعى لإفلات، ثانية يسردها محقق يسعى إلى حقيقة خافية بين كواليس خالية من إضاءات، وثالثة يسردها مشاهد عن تصورات، ورابعة كامنة في صدر عالِم مقتدر يكتري المجرمَ في سعي إلى هدف عات، قد يرشو المحقق يطابق قصته قصةَ مجرمه، يبرئه في ما هو آت.. وللمشاهد المشغول مع همه، نحن، غيرنا من بقية الحضرات، السكوت، أكل هوا، عند توخي دقة. اليقين شبه مستحيل.

علاقة حسان وأبيه تدمرها وقائع خفية. ذلك هو اليقين الوحيد في بلبلة نحن فيها، وراءها تعتيم، تسليم، نتكلم أحيانا كما نتكلم نركب البلبلة.. بدل تركها تركبنا في مقتَلة..

المهم، فتاوى القوم تفيد سرا لو ان حسان بريء لا يهمل البنت في محنتها تذوب، لا أحد يدري متى يهوى السيف فوق عنقها أو ترديها طلقة في جبينها غسلَ عار، بعض آخر ينتظره

يؤوب، لعله يبدد غيوم الشك والضغينة مِن سماء لا تتجد مَن يلوب. يرابط الموالون والناقمون عن اتفاق غير اتفاق على حصران المقهى يحرقون سكاير اللف واحدة اثر أخرى، عيونهم مشدودة إلى الطريق في انتظار معجزة، على مقربة تدور اسطوانة مستهلكة، من الاسطوانات القليلة الممسوحة اليتيمة المتخلفة مع حاك قديم يديره مكوك عن احد العمال الأرمن المنسحبين من القرية مع توقف عمل مشروع الهرية، الأغنية تنقطع، تعود، تنقطع، تعود، الرواد يمتصون ينفثون دخانهم يسمعون نداء الدم المستيقظ في الأعماق.. أحدهم يدمدم: عفاريت قوة خفية تخرب كل شيء تمسك كل شيء بعد ذلك دنيانا من غير بخور، نهايتها ماخور!

و.. يحل يوم هيجان الأرض في وجه السماء!

قلائل يعرفون ما وراء أخبار العشاق، لماذا الدم يراق، هم الصامتون.

من صوب النهر الآخر تأتي جماعة من الرجال، يشاميغ ملفوفة حول الرؤوس، عُقل منزلة على الرقاب، شوارب متهدلة مخذولة، وقوفا في الزورق القادم من ذلك، الصوب يتطلعون إلينا في صمت، رائحة فجيعة تلطم الأنوف، الكلاب تنبح على الضفاف، على الطرقات، صبيان يجرون من كل مكان، رجال يرجعون عجالى من الحقول، آخرون يتململون

عند مدخل المقهى وأبواب البيوت، ريح عالية من جهة الشمال، أطراف النخيل أذرع عفاريت راقصة، نثار الأرض سحب غبار تغطي السماء.. عجائز، بنات، يكتمن صيحة:

- حسنة هربت!

ينفجر النبأ رعدا في صمت حديدي، حسنة تجس نية مبيتة لقتلها تختفي، شتيوي زوج أمها يركض من بيت إلى بيت يبحث عنها، بروق تتخاطف عينيه، تتبعه قابلة القرية، عجوز عجفاء تولد الأبقار والنساء، وراءه يصطحبها لاهثة لغرض فحص البنت، التأكد من عفافها قبل كارثة وشيكة قد يتمكن دفعها..

الخبر ينتشر بعيدا قبل ذلك، أهل حرمته من الجانب الآخر بينهم خالها فضولي القادم لأخذ حصته في غسل العار تصلهم وشاية، حسنة تجري مذعورة من درب إلى آخر، تطرق أبواب بيوت دخيلة عليها.. موصدة.. مقفرة.. لا يحميها أحد.. تواصل الجري..

يتبعها متشفون، هلعون، تتعدى حدود القرية، تتجه إلى مشروع الهرية..

- تلجأ إلى صديق حسان.. الملتحي مدهن الملابس.. معلوم مفهوم!

- لا مفهوم لا معلوم.. كل العيب في علم الغيب!

أحدهم يحث أهل الصوب الآخر، يشير إلى مثلث أرض الهرية:

- فاتت من هنا قبل قليل إلى هناك.

صبيان يتقافزون في طراد، نساء يتعثرن في هلع، يلتقون سيل الناس الجاري وراء شتيوي، امرأة ضاحكة، أخرى باكية:

- تجري الولية حمراء العين.. لا تدري من أين إلى أين.

- ويلي عليها.. مسكينة حسنة.. فأرة تجر وراءها هررة.

نخل البساتين حولها أشباح، ترصدها، تحاصرها، لا تدري متى يظهر من خلف جذع مَن يحتز رقبتها، يرميها طلقة من محروسته الجهماء. بنات يرتعشن، يستجوبهن فضولي خال حسنة الأشم، يعترفن:

- رأينا حسنة تقصد خزان الهرية.. شيء عندها هناك.. لا ندري!

عملاق المدينة الحديد الشاهق صامت في مثلثه الموحش، لا يبقى غيره ملاذا لها، ينتصب في وجه الكائنات الزاحفة خلفها، وشك انتفاض، انقضاض، خبطهم ضربةً ماحقة تخلصها أخيرا..

- الحارس المدهن ليس هناك.. يهجر المشروع منذ أيام.

- الولاية سحبته!
- ملعون.. يخلق الفضيحة يهرب منها!
- فعلا.. علاقات الحارس تثير الشك خاصة مع أهل الولاية!
- يدري.. حفلة دم وشيكة.. لا يبقى يرابط عند مقتله..
- قالوها قبلنا الفتنة فتنة.. مَن ينسجها تمام.. يحركها انتظام.. ينسحب..
- تريدون الصدق.. لغوكم غير مقبول.. سوّيتم حسنة غادة الورد جوري!

يقال، يقال، يقال، كل تأريخ قريتنا أقوال، أفعال تدار من وراء ستار، تتأكد الكارثة يوم القصاص، لا قصاص التمر طبعا بل بشر. الغيمة الترابية وراء حسنة تكبر، تلحقها توشك بلعها، العجوز القابلة وراء شتيوي موشكة على اختناق، على سقوط بين الأرجل تحت وطأة سعال شديد.

رعب يسربل الجميع، حتى الأبرياء نهاية الحشد في خوف طاغ، محتمل عن شعور أنهم جناة في حادث يبدو لمراقبه من بعيد غريبا، لا يمنع ذلك ظهور ابتسامة على شفتي هذا ذاك.. مريرة.. آسفة.. حسنة تلوذ إلى سلم الهرية قطة مرعوبة، مطاردوها كلاب صيد مدربة مهيوبة، عذرا أهل قريتنا على تشبيه مهين، لا يحضر غيره في تدقيق مكين، يتصايحون،

يتوعدون عسى تنزل. خبيرة الصعود إلى الأعالي في الصغر لا تجد خيرا من ذلك الملجأ، غيرها يعجز حتما عن اللحاق بها، تتعالى تهديدات إطلاق نار، لا تنزل، صمت ثقيل العيار في مثلث الهرية، أنفاس تصخب لا يُسمع سواها، يتلبثون في سكون على رؤوسهم الطير، الأعين مشدودة إلى السماء مشدوهة، شفاه تتيبس جلد حرباء لون التراب، غيمة الغبار تركد تستقر، بكاء طفل متوحد يخترق السكون، يختفي، يتلاشى، آخر يحاول التسلق وراءها، حسنة وشك بلوغ الحلقة الثالثة المحيطة الخزان..

فجأة.. حركة خاطفة لا يلتقطها نظر.. تنفصل حسنة عن سلم الهرية.. ذراعاها يتأرجحان في الفضاء.. تهوى.. تحلّق إلى الأرض في صمت.. من غير صرخة.. طيرا يُصاب في قلبه عند ذروة طيران..

الذين لا يصعقهم المشهد يطلقون صيحات مبحوحة مكتومة، كثيرون تتوارى وجوههم وراء أيديهم رغم أنوفهم، حسنة بينهم ترتمي ممددة على مبعدة خطوات، تتسع حلقتهم، تضيق شيئا فشيئا حولها، سحابة غبار يثيرها السقوط تمطر ترابا.. صمتا.. حتى على شاعر القرية.

عن دوي السقوط، كيفية سماعه، حدوثه، يتكلمون طويلا بعد حين، غرابته مباغتته تذهل القرية.. تخرسها ساعات.

تصر حرمة شتيوي والخال والأقارب من ذاك الصوب على التأكد من صواب التهمة الملصقة من قريتنا على ابنتها، هي متأكدة من عفافها رغم ارتفاع بطنها الظاهر، شاعر القرية لا يتراجع عن حقه في الدفاع عن عشاق المأساة مع خلوها من شاعرية، يذم الجميع على ديدنه حين يغضب:

- تريدون الصدق.. لغوكم سافل غير مقبول.. مجرد انتفاخ بسيط من قهر.. من دواء.. من هواء.. لا ندري!

شتيوي مضطرا يصر أيضا على الفحص، يريد الانتقام، تنظيف لوثة باب بيته نهائيا، إما الشرف والكرامة أو الدم يغسل العار والمهانة، حسنة لما تزل تتحرك، ترفس، تتأوه، الذبح الحلال ممكن طالما الطريدة تتنفس، الشاعر وبعض العارفين يدعو لحملها على حمارة والإسراع إلى مستشفى المدينة لعلها تُنقذ. أقارب الزوجة، شتيوي يسايرهم، يحملون البنت في عباءة إلى بيته، تتبعهم القابلة العجوز، جمهرة أطفال ونساء وفتيان، لا يصدر عن حسنة توجع كل الطريق، مزرقة مسودة حِمل باذنجان، جروحها تفز تسكت.

جمع آخر عند باب بيت شتيوي أبي حسان، تشاركه كلاب شمشمة الأخبار، تُنقل البنت إلى حجرة مظلمة، تُترك معها العجوز وامرأة ثانية، الرجال ينتظرون في الحوش منكسي

الرؤوس والعُقل، في برود ينظرون حينا إلى أمها تقاوم البكاء، عيونهم محتدمة جمرا نارا..

تظهر العجوز أخيرا ترد خلفها باب الحجرة، تدفن نظراتها في الأرض على وجهها تعبير قناع جامد. لحظات رهيبة، طويلة، عميقة، تتطلع إليها العيون متسائلة، تنحني العجوز إلى الأم تهمس في أذنها شيئا، تدوي منها هلهولة قوية، يتبعها إطلاق رصاص في الهواء يشق سكون الفضاء.

يهرب الوجوم من الوجوه، يرفع المخذولون رؤوسهم يعيدون عقلها إلى شموخها، يكرر كبار القوم أصحاب الأمر نصحهم عن ضرورة نقل حسنة إلى المدينة سريعا..

الوقت غير رحيم، غير مبال، حسنة تسلم الروح في زحمة الناس بين الاطلاقات المرتفعة عاليا في سماء القرية، أعلى من الهرية والنخل والرياح وشوارب كل الرجال.

- **القصاص:**

بقايا رائحة الفجيعة عالقة في الجو، سيارة تتهادى بعيدا على الطريق موازاة النهر، ترافقها نظرات جلاس المقهى والضفاف، تتعدى مثلث الهرية المهجورة، تقترب إلى بيوت القرية.. تتوقف عند الدرب المفضي إلى بيت شتيوي، يترجل

سائقها يفتح بابا خلفيا لها، يعين أحدهم على النزول، يبرك القادم، يبقى لصيق الأرض.

يقترب شبان وصغار إلى الزائر القادم من المدينة، تنتظرهم مفاجأة، يتبدّى المُقعد صاحبهم القديم حسان، يتسلم من السائق عكازين، يُنزل السائق خُرجا فيه بعض الأشياء يتركه على الأرض قربه، يمتطي دابته الحديد يمضي عائدا في دربه.

حسان على الشاطئ يتطلع إلى النهر والأشجار، تنشب الحرب الباردة الثانية، تندلع موجة الأقاويل الجديدة:

- يعود المحروس أخيرا من الحرب لا يختلف عن غيره من مقعديها.
- أفرجوا عنه من سجن.. نظرته المتشوقة إلى النهر والأشجار تفضحه!
- ضربته واحدة من سيارات الولاية.. مطاف الأحلام والأفلام واضح.
- خبرنا يا رجل عن الحاصل معك.. أو صرت من أهل الأسرار؟
- تريدون الصدق.. لغوكم غير مقبول.. خلوه يرتاح.

يلتفت إلى المقتربين إليه، يتبادل معهم في برود بضع كلمات، يسأل أول ما يسأل عن حارس الهرية..

- هجر المكان منذ زمن بعيد..

- عن الفتنة.. عن وجهتك قبلها بعدها.. لا تريد الكلام؟!

- تصير واحدا من الحَضر حسان.. سكوتي.. عنكبوتي!

في عينيه حقد كظيم، يحاول النهوض معتمدا على عكازيه، يهرع بعضهم يعينه، لا يلتفت إليه، يعلق خرجه على كتفه، يتحسس عكازاه الأرض يبتعد عن الجمع.. خلاف المتوقع ينأى عن الدرب الموصل إلى بيت أبيه، محاذاة النهر يرافقه صبيان، بعض معارفه، يبتعد عن بيوت القرية..

تحت شجرة الكالبتس المتوحدة على الشاطئ يفترش الأرض، يضع حاجاته عكازيه قرب جذعها، يرسل نظره إلى النهر، يخلد إلى صمت.

• • •

في قريتنا تدرون لا تبقى الأسرار طي الكتمان طويلا، صباح يوم آخر نعلم عن حسان وعودته أمرين، أولهما خيبة أمله في المدينة، بهرجها يترك في روحه مرارة العلقم، لذلك قصة طويلة، سيارة مارقة في الطريق تحول بدنه شبه مسخ يزحف على الأرض زحف دواب لولا العكاز، ثانيهما رغبته في الانتقام من الحارس مجنح الحاجبين بعد الأخبار المتوترة إليه طريح الفراش في مستشفى الحكومة تقص عن تقوّله وتعرّضه

حسنة منذ رحيل حسان عن القرية طلب الرزق. بعد حين دفعة أخرى من الأقاويل:

- حسان يحفظ ضمن أغراضه خرقة تنهشها حسنة من بدلة الحارس يوم يراودهاعن نفسها..
- نعم تبعثها إليه مع موثوق يحفظ السر تدعوه إلى الرجوع إلى القرية.
- غادة الورد جوري على قول شاعرنا متحرشوها زادوا.. إنقاذها ضروري.. ماذا عندكم أكثر.. نورونا..
- لما ينوي العودة لانتزاع شرفه السليب ناصعا من الحارس تدهسه سيارة!

يضحك الشباب.. بعضهم يؤكد:

– لماذا الضحك؟ الحارس عضو جمعية سرية مقرها حمام الولاية العام تصطاد الحلوات تستخدمهن لمآربها، ذلك خبر قريبها إلى وجهائنا في جلسة الصلح!

- المهم يعود ابن القرية مرغما مضطرا بعد الفَلَقة له من حاضرته المشتهاة.
- مهما يكن.. في ذلك إثبات صريح لحب آثم سبب الجروح.
- هيهات لمجروح الروح يفصح تماما يريح العقول!
- تريدون الصدق.. لغوكم غير مقبول.. الرجل صريح.. تريدونه من شاكلتكم ثرثار مهذار!

ينقطع حسان عن القرية وأهاليها في كوخه تحت شجرة الكالبتس يرد على من يسأله من معارفه ومحدثيه عن غيبته:

- نعم، أهجر بيت أبي في نزوة، في ضلال، من غير رضاه، أكفّر عن ذنبي أعود إليه.

والده لا يلح عليه بعد أن يأمن لإبنه الرزق، على ضفة النهر يعيش، ينام، على منحدر الشاطئ يؤدي حاجته، يبيع الملبس والسكاير والشخاط والشاي والسكر في بسطة صغيرة، يقتات الخبز والحليب والمرق يبتاعها من الأطفال والنساء، سيارة المدينة تأتيه في أوقاتها بالمطلوب لتجارته المتواضعة، يصير مُعتمدها عندنا، حاله تمام باختصار، لا يتذلل إلى مخلوق، لا يمتعه في الدنيا بعد حسنة غير إرسال النظر إلى النهر والأشجار والدواب إذ تؤوب مع الرعاة، والاستماع إلى زقزقة العصافير وهديل الحمام، من حين لآخر يتطلع إلى هرية صباه يتساءل عن المذنب في اغتيال الأحلام.. عالية نعم، تبدو قميئة، نكبر نحن يقول تصغر الأحلام..

منقذته الأشجار وامتدادات النهر تحلّق أحلامه فوقها عند غياب الزبائن.

الحارس مدهن الملابس لا يعود إلى القرية بعد فجيعة حسنة، لا يأتي ذِكره منا أمام حسان، مجلسه الجديد تحت شجرة

الكالبتس نألفه رغم كل الأقاويل، الحق يصير حسان أكثر انغلاقا ابتعادا عنا، كلابنا تنبح عليه حين تمر قربه، ندري لا يعقل منها نسيانه، السبب في لفائف ساقيه، تشم رائحة المعدن المغروس في عظمه، بعد حين تعتاد حتى الكلاب عليه، رغم ذلك حين يمر طريقها قربه يضطرب سيرها، تلتفت إليه في عيونها استفزاز مريب.. تواصل دربها هاربة من هناك..

تروح مواسم تأتي مواسم، الحادثة المشئومة يكاد يطويها نسيان، ننظر إلى ابن شتيوي جزء من شجرة الكالبتس وضفة النهر والهرية، نبعث إليه سلاماتنا من بعيد ترد إشارة يده أو يكتفي إيماءة رأس بسيطة، يردد كلمات غامضة لا تسمع. والمدينة تبدو تتغير، قصة الحارس وحسنة تصلها أخيرا من مصادرها، تبعث إلينا بدلا عنه شابا بهي الطلعة في ملابس خضراء نظيفة، يتأنق أحيانا مع ربطة عنق حمراء، في المقهى يقولون إنه محتلف عن الأول، يقارب مجالسنا يشاركنا الكلام والرأي، يتفق مرة يختلف مرات، كل أحاديثه طلاوة وصدق، نقربه إلى حلقاتنا وقلوبنا أكثر. آخرون يتدفقون إلى مشروع الهرية المندثر، تدب الحياة في كل شيء مجددا، فجيعة حسنة للمدينة تذكار، سماد ينبت أوراد الجوري حول مشروع الهرية، أعمال حسان تجارته الصغيرة تزدهر تتسع يتقاطر عليه أبناء قريتنا، الوافدون الجدد يشترون علب السكاير والكبريت

والجكليت والبسكويت والبطيخ وغيره منه، سيارة المدينة تأتيه مرتين أحيانا في أسبوع، يعرض أحدهم عليه إقامة كشك خشبي له يقيه برد الشتاء ومطره بدل السقيفة. حسان لا نعلم لماذا لا يرحب، يتطلع إلى النهر عسى حسنة تظهر، إلى الهرية لعلها تنزل، لا يهتم كثيرا إزاء تسرب زبائنه واحدا بعد آخر إلى دكان القرية الجديد، لا يشغله ربح أو خسارة، يمنح مَن يأتيه مفلسا المال دون وصل، يغرف كفه الحَب والحمص لغيره من غير حساب، الأطفال يمرون ضحى يهدي لهم الملبس بين يوم ويوم..

حتى نرى ذات صباح مكانه عند شجرة الكالبتس خاليا! بسطته، علبه، أكياسه، كل حاجاته الأخرى مع السقيفة غائبة، يختفي من المكان يتركه نظيفا تماما. نعرف في الحال انه يغادرنا هذه المرة إلى الأبد..

- لكن.. إلى أين تراه يولي الوجه؟
- ما الدافع لهجرة تتكرر ومقامه طيب بيننا؟
- لا.. لا يمكن أن يستسلم مع كل أغراضه إلى الماء، الى أعماق النهر!
- أعماق النهر.. أو يغويه نداء آخر آثم من الحارس المدهن يتبعه؟!

بعد حين نسمع عنه يصل ديرة أخرى يمارس تجارته..

- ما المنتظر من رجل لا يملك أرضا تعقله؟
- يجري وراء حكاية عشق جديدة داريا حسنة لا تعوضها أخرى هنا.
- لا بتاتا، يعود إلى ديرة أجداده متأكدا بلا أهله يبقى غريبا.. قشة..
- تريدون الصدق.. لغوكم غير مقبول.. البلد كله لا يطاق يهاجر إلى أوربا الترف.. ذريعته مناضل سياسي يهدده قرف.. هارب من حرب إلى جنة الحب.. البحث عن متخلفي الخدمة العسكرية مستمر على قدم وساق..
- شاعرنا طوّختها.. لغوك غير مقبول.. لا ندري أين هو و.. كفى.. تختطفه شياطين.. ملائكة.. ما يدرينا.. العالم كله مختطف!

أهل قريتنا في سيرته يسدرون، والده شتيوي يمل البحث والسؤال ينكفئ على شؤونه يدفن همومه، يحاول أن لا يتذكر الماضي، خساراته، هل يتمكن! نحن نقطع الطريق بين بيوتنا وحقولنا، من المدرسة إلى المقهى، من المشروع إلى الجمعية، نحاذي شجرة الكالبتس عند ضفة النهر، نلتفت ترى عين خيالنا حسان جالسا هناك، ينظر إلينا، أو قادما من منحدر الشاطئ يعرج بعد تخلصه من عكازه.. لحظات.. يغيب في الماء.

الأطفال يسبحون في كل مكان من النهر.. إلاّ قرب شجرة الكالبتس.

تتغير قريتنا كثيرا، أنابيب الماء تدخل بيوتنا، مشروع الخزان يكتمل. الطريق بيننا بين المدينة تعبد، أسلاك الكهرباء تمد، ذلك وبعضنا يعتقد عن خطأ أو صواب انه لولا مأساة حسنة وحسان لا تشخب المياه في حنفياتنا، لا يحتفل النور في بيوتنا ليلا، لا نرى بنات البنطلون، لا يحلق رجال شواربهم. للتقدم في أي اتجاه ثمن يدفعه طيبون.

عقلاؤنا يكتفون إيماءةَ رأس عند ذكر سيرة شتيوي وآله، يتفكرون في ما تحمله الأيام القادمة، يحاولون رؤيتها كما هي، كما قد تكون أو لا تكون، يعودون إلى أيام جمعية الملتحي المدهن السرية، إلى كلام عن حمّام..

مهما يكن الحال تتغير أشياء وأشياء في قريتنا، ينسى البعض حسنة.. ينسون حسان.. تتغير أشياء كثيرة.. حتى نهرنا يبدو يجري لا كما كان..

إنما ليس في الاتجاه المعاكس.. في أية صورة.. من أي زمان.



▪ **خبـر ١٥**

سر اللعبة

- **الداخل والخارج:**

يزدحم الحمام يا فضولي عبد العمص اليوم كالعادة، تكاد لا تعرف رأسك من رجليك، هذا احمل له شايا حامضا، ذاك وزرة، ذاك صابونة، آخر دلّك له ظهره.. يقول لهم: يا جماعة دعوني في همي اليوم لا أدري وجه مَن صباحي، دنياي تتغير، تتغبر، لا اعرف ليلي من نهاري.

يضحك الجميع يعلق أكبرهم: شيطان رجيم أنت تغوينا وتريد التخلي عنا.

يا جماعة لا أتخلى عنكم، لكني محتصر..

لا يخلون سبيله: طيب، جمعيتنا جمعيتك، نحن أصحاب السراء الضراء، أسرارك أسرارنا، أسرارنا أسرارك، الدنيا خير، صحو، شمس دافئة، ما شفنا مثلها من زمان وصل الأصل، ماذا يجري معك يا أبا الليل أنت عمدتنا.. ذخرنا.. كيف يشرح لهم؟ هل هو صحو السماء يزعجه! نفسه لا يفهم، مشاكل،

شغل، مشاكل بيت، في كل بيت هذي المشاكل، لكنه لا يتمكن أن يشرح، لا يمكنه أن يفصح. ينهيها فضولي عبد العمص يقول لهم: يا جماعة اليوم خميس، هذا الحمام وذاك مكتظ بالناس، الشغل كثير لا مجال للعب.

الأصحاب اللاهون، عشاق المعاقرة من بئر الأسرار، لا يدعوه لا يمهلوه لحظة، حجتهم: صديق عزيز جدا، أفندي، مصون، حارس مشروع هرية طويل عريض، يريد أن يستمتع من سالوفة غير مألوفة، من سوالف مدينتنا مدينة بابل المعروفة، الله الغانم، يدفع أي مبلغ تطلبه، فقط أن نشركه في اللعبة. ما الضر، يوم واحد.. يمضي بعده ينطوي السر.

قلبه يحدثه عن مصائب آتية من ذلك لا محال، يخطأ فضولي في تسليم مصيره إلى غيره، في تورط مع حفنة أرذال، من ذا يؤكد أنهم لن يدعوا آخر وآخر حتى تعلم أطراف المعمورة كلها مستورة غير مستورة ما يخفي من سيئ الأعمال.

في البداية يشرك أقرب أصدقائه في اللعبة، جنون يدفعه إلى اعتراف عنها، وإذا صديقه يشرك بدوره أقرب أصدقائه فيها، ثم صديق صديقه يشرك أقرب أصدقائه، وهكذا. السر لا يعود سرا، يصير النار تندلع في كل مكان، أما نتيجة ذلك فهي عند الغيب...

- **السر من الخارج:**

لا يتركه لا يمهله أصدقاؤه، أولهم أكبر تاجر في سوق العلوة، ثانيهم ملاك أراض خارج المدينة،. وثالثهم اكبر علامة فهامة، أما هو.. فمن هو وسط مثلثهم؟ صانع حمام ينزع نصف أهل المدينة قاذوراتهم عنده، هو إذاً رب النظافة، شاهد على طهارتهم، تحت يده يمر الذاهبون إلى الأعراس والأفراح. هناك طبعا حمامات أخرى في المدينة، لكن حمامه هو الأقدم، الأهم، لكل واحد الحق طبعا في تصور نفسه كما يشاء، عمره كله في حمّامه، أبا عن جد، بداية لا يعرف إن تلك المقصورات تحوي، إضافة إلى أسرارها الغريبة المعتادة له، على أسرار أخرى لا يفطن طويلا لها حتى هو فضولي عبد العمص عالم خوافي المدينة، ذاك يحدث محض صدفة، بعدها يتأكد لا توجد صدفة في الدنيا، إنما البداية صدفة لا غير.

كان ينظف المقصورة المجاورة لقسم النسوان مع الاستفتاح وإذا طرف إصبعه يدخل مع كل أمان في فراغ، يندفع الإصبع في فتحة قريبة من السقف، يجفل أول اكتشافه مثلما يجفل عباد الله حين يفاجئهم جديد، لعنة الله على الجرذان، يقلب التختة يصعد حذرا يتبيّن حقيقة ما هناك، سبحان الذي سوّاك واستجلاك واستحلاك، جنة الخلد حلم الزمان، أجساد لا عد لها

لا حصر، ما تشتهي النفس ما يلذ يطيب، تلتهب نار لقياه، لا يمكنه الشغل، كل ساعة، نصف ساعة، تفرغ المقصورة يقلب التختة يروح يسرح في مرجه الفواح، جوادا يرى نفسه يطير بينهن، ورديات على مخمل اخضر، هو مدللهن، جوادهن الأبيض، مختالا يدربك بين الأعشاب، لحظات يضيق تنفسه، ينسحب، يعود مرة أخرى إلى الضوء المغبش من البخار والأنفاس.

في الليل لا تنقذه التصورات، يصير دائم الحزن والسهوم قرب حرمته، لسان النسوان يعرفه، لا يؤتمن، يفضل الصمت وإخفاء همه.

- **اللعبة من الداخل:**

تصير عادة، إدمان، يغلق باب المقصورة يسند التختة إلى الحائط يقف دقائق لا تحصى، من كلامهن يعرف أسرارا أكثر عن المدينة، تلك زوجة فلان هذه زوجة علان، ينتظر حدوث معجزة، يتحرك الدم في عروقه في جذوره يعود صبيا متدفقا.. ذلك بعيد المنال، بُعد السماء عن الأرض لا يطال، السمينة والرفيعة، القصيرة والطويلة، كلهن يجربهن تحت نظره، أحيانا تكاد تفلت منه صرخة، صرخة كبيرة تسقط كل الجدران، تصدر منه هكذا فجأة وتسقط كل الجدران، أساه يتضاعف

يدرك انه غير قادر حتى على إطلاق تلك الصرخة، ماذا يقولون عنه؟ مجنون يهرطق أو عاقل يخرق المقدس من غير منطق!

نسوان المدينة كلهن أمامه، يتصفحهن كيفما يشاء، حين يشتهي حين يريد، قادر على اللعب بالمدينة كلها أكثر من حكام، مثلما هن يلعبن برجالهن أكثر من الحكام، بعضهن يلعبن بعيدا حتى بحكام، للعالم المرئي آخر خفي يتكشّف تقوده نسوان، يختلطن في حضرته يبدون امرأة واحدة لها مئات الأذرع والسيقان والرؤوس، صوت واحد لهن هو اللغط لا تفهم منه شيئا أحيانا، تلك هي المدينة كلها، يمتلكها لا يمتلكها، متفرقات حريمه، سباياه، مجتمعات خادمهن حافظ أسرارهن، أين الآخرون يتبيّنون حقيقة دنياهم، أين عشاق الألغاز يرون إلى مملكة خفية لها إعجاز يطال أكبر إنجاز..

في يوم ملعون يبوح السر لصديق يعذله أول الأمر: رجل محترم تتجاوز الأربعين، لك قريبات باكرات وزوجة تشهد قريتكم على نقاء صفحتها فكيف ترتكب محرمة كهذه؟ يجيب غير مبال: الأمّارة توقعنا، لا أحد ينجو من الإغواء، تتأكد ذاتك.. بعد حين يأتيه الصديق يحمل ربعيته، تتحول مقصورة الأسرار مربع أحلام بعد أيام، خمر استراق نظر وغناء ليل له أول بلا آخِر..

وداعا للضمير، عهدة الناس يبيعها يشتري عذاب النهار وحمّى الليل، لكنها الدنيا مهما تشط تبقى رحيمة، ما أن تصب على رأسك داء إلاّ وتحمل معه الدواء، تشحب همومه، تتخدر أعصابه، الخمرة ملعونة..

الباقي قدامه يعرف كنهه جدواه، حياة الاطمئنان يودعها يوم يودع حياة الشرف والكرامة، يوم يعثر على ذلك الثقب المسحور، كأنه لا يطل على خزانة مياهها العفن بل على بحر أمواجه جبارة غدارة، يدعوه لا يني إلى إبحار، لا يدري هل من ضفاف وأي ضفاف هناك، أين يولي الوجه من بلواه وهو صاحب أهل وعيال..

سيد اللعبة يدعو مَن يريد، بعد حين يصير اللعبة نفسها، يغمز أصدقاؤه عنه في غفلة منه إلى بعضهم إذ يلهون، لا يدري كيف أين تنتهي تلك الطقوس مع ضياع بقية الناموس، إلام يقود تألق الحال والشباب ينتهي كأنه الوقود، أيطردهم يقول لهم إن الثقب الأسود سُدَّ انتهى من الوجود!

لكنه أبدا هناك، ينظر إليهم مثلما ينظرون إليه منه، يرتقه، غرزة إصبع تفتحه، فوهة مسددة نحوك، كوة مطلة على كون عجيب..

يطردهم.. يقول لهم انتهت اللعبة.. عسى في اليوم التالي لا يصير بلسانهم في المقاهي مزحة.. فضيحة لها أجنحة..

يريد.. لا يريد.. يصير سميرهم..

لا يبقى غير تقديم القفا.. لو شاءوا من اللهو المزيد!..

- **اللعبة من الخارج:**

يبقى أمام ذاته على الأقل سيدهم.. سيد المدينة.. هو فضولي عبدالعمص، نساء الأمة تحت ناظريه، يدعو من يشاء، يمنع من يشاء، هو الشاهد على طهارة أي من القادمين والقادمات إلى حمامه في طلب نظافة من الإيمان.

زائر جديد إذاً؟ ليكن، ليكثروا، يزيد الأصحاب والخلان تزداد ذراعاك طولا، السمن يأتيك حتى الباب، الفاكهة تصلك في مواسمها، رجال خلفك ذخر الأيام العصيبة، مرحبا يا ضيفنا القادم الجديد حارس الهرية، مَن تراهن من حظه ونصيبه، تكتشف في اللعبة كل مرة جديدا، المحاسن المتخفية خلف العباءات تسقط حصونها، سمراوات يتكشفن بعد الغسل بيضاوات، بيضاوات يتكشفن سمراوات، كلهن أين هن من موشحات النقوش الزرق شذر النحور وزهر الخصور، أي منهن اليوم تدخل مملكتنا السرية الفسيحة، أيهن اليوم سلطانة رعاياي وسبيهم؟..

الحرص الدائم على أن يكون الضيف المنتقى من غرباء المناطق البعيدة دفعا للقيل والقال ماثل لا يزول، خطأ واهٍ يعرض الساهي اللاهي إلى مصائب ومخاطر، إلى إراقة دم، هوية القادم الجديد إذاً حارس مشروع له شأن، غير بعيد عن صفوتهم، صديق تريد التسرية عنه، إرضاءه، قادم من موقع عمله ليلة واحدة أو ليلتين ثم يمضي معه فضيحة لا تكون، فهو مجرَّب، يحفظ السر، يصون عهد الصمت.

لا بأس فضولي، تزداد اللذائذ مع ازدياد المخاطر، والأمان والضمان والستر والعافية شعارك الدائم أبقه مرفوعا مرفرفا أمام العالَمين غير العالِمين..

- **السر من الداخل:**

كن واحدا أيها الضيف مثل الآخرين، ضع ملابسك مكانها، خذ صابونة وبرتقالة معك وامض، قدماك تدلانك إلى مقصورة الأنس، اغتسل جيدا وانتظر سيدك فضولي يوافيك بعد قليل، أغلق الباب دونك والأصحاب آتيك تباعا. ذلك الدهليز الصغير، الثقب الأسود، يقودك إلى العالم الآخر، لا أحد يمتلك مفتاحه غير قلائل، ترى منه ما لا تراه حتى في الطيوف والأحلام..

يحيط فضولي وبقية الصفوة الضيف الملتحي حفاوة، يتصدر مرصد الأنس في كشف جمال تلك الأكوان، يتهامس التاجر والملاك والعلامة فيما بينهم عما يراه، يرجونه وصف خلاصة لهم من ذلك الاستكناه، تتزاحم المناكب حرصا على إلقاء نظرة تطفئ الآه، يؤنبهم فضولي عبدالعمص على التعجل، العصر طويل والضيف ضيف، أعطوه فرصة تأمل، دعوه يمتع نظره بما خلق الله، دوركم آت لا ريب لا تثريب، نأخذ حصصنا جميعا بالترتيب، لا موجب لتسرع، لتشخلع، لنبذ التأديب.

يلح الأصحاب في طلب الوصف، والضيف لا يصدق عينيه:

- يوم كالحشر نحن فيه، البخار دخان، الرؤية تكاد تنعدم، شعورهن سدم شعثاء، أجسادهن كواكب لامعة منفوخة، روائحهن تصل انفي مشبعة بكبريت، عيونهن فقاعات صابون، أثداؤهن مجرات مفروشة، جلودهن مهدلة، عروقهن نافرة، ذلك هو نصيب اليوم.. لكن مهلا.. هناك صبية جميلة.. نحيلة صغيرة.. في خدها شامة.. حجم كشمشة صغيرة.. تبدو لي معروفة بل مألوفة.. من قرية مشروع الهرية هناك..

يُفاجأ الحاضرون، آهة تفلت خلفهم تشبه شهقة، صيحة مكتومة تصدر من فضولي في غير انتباه. لا ينتبه الضيف الجديد له، يواصل الكلام:

- وهي حامل تبدو لي.. نعم من قرية الهرية.. غير معقول هذا الشَبه!

يغمز لأصحابه، يشير إلى غاويهم. يزيحه فضولي عبد العمص عن الثقب الأسود، يصعد مكانه، يلصق عينه يبقى مشدودا إليه.

لا يفهم الجَمع ماذا يتمتم في استدراك، ماذا وراءه، ماذا يصيبه من هناك!

يهوي من علو، يسقط بينهم على الأرض القذرة شبه مشلول!

يصعد أحدهم إلى الثقب لاستجلاء وبيان.. دهشة تدفعه إلى هذيان:

- تشبهه فعلا.. كأنها ابنته.. قريبته.. يا مكتشفها يا حارس المشروع فتواك فتنة.. حضورك محنة!

يقترب الآخرون إلى بئر الأسرار.. يلهب فضولهم عطش بتّار.



▪ خبر ١٦

لقاء متأخر

- حصل لي الشرف، أنا أيضا مهندس، اسمي إحسان حسن، مهاجر إلى هذا البلد الأمين منذ عقدين، مثلك تقريبا، وأدري من اسمك المعروف أنت تكتب أيضا، لكن بصراحة.. وبعيد عنك حياتي شباب.. تبهذلنا في الغربة، القَرعة وأم شعر منا فيها سواء، لا يتركوننا نعمر بلدنا يحركون غرور زعماء، أطماع أتباع، يثيرون الحروب نتشرد، نقع في شباك. تذكر في الصغر ضرب الماء على قوس من النهر ليهرب السمك إلى شبكة صاحبنا المنتظرة هناك، هنا نُشوى، من غير حراك، أو العمل سائق تاكسي في أحسن الأحوال، أحاول الحصول حتى على شغلة حارس غابة تُمنع عني، الذي يحصل على شغلة يتعملق فترة بعدها.. تسريح، رح استرح، بعدها استعد، ساحة عرضات غير مرئية أمامنا، لا يدعون الواحد يصير غنيا، ذلك يشمل حتى أبناء البلد، لهم حق، عائلات ماسكة الاقتصاد لا تريد خض شجرته وارفة

الظلال لهم في غير أوان، إلى كل مَن يهب يدب، التحول طبيعي من عشاق رصافة وكرخ إلى عشاق صرافة وكرخنجية، عشاق خيبة، نجن في الغربة، عن حقيقة، عن وهم، طلاقات، توحد، مراقبة، مثلث حصار جبار حولنا، ذلك يفصم الشخصية، القوة الطاردة لنا من بلداننا تطردنا لاحقا من غربتنا منفانا.. نعود إلى بلداننا صعاليك.. وكلاء شركات.. بائعي أحلام.. ملذات.. تفاهات..

- للشارع الصاخب هذا جانب هادئ مضيء هناك، ننتقل نبدل مسطبتنا؟

- أنتم الذين تكتبون تبدون لي أحيانا، لا بل غالبا ومعظمكم أقول لك.. تبدون موهومين لا موهوبين، عكس ما يقال عنكم في وسائل أعلام متملقة أكثر وهما وهبلا منكم.. ليش؟ تأخذون حادثة تبدؤون النفخ حتى تصير الحبة قبّة.. يا ريت كبّة.. أو قبة حقيقية مصنوعة لا من خيال فضّاح ووهم شطّاح بل قبة حامية، تحوي تفاصيل الحبّة، كيف تُخلق ماذا فيها ما شفرتها الوراثية كيف تُزرع غير ذلك مما يخصها ويُمكّن فعلا لو تجمعه في أناة ظهورها قبة صغيرة مثلا، لا قبة برلمان نعسان..

في الحقيقة قرأتُ لك كتابا من زمان، وقتها لا أميّز، شأن غالبية من القراء أرى، بين قبة يبنيها عقل حصيف وأخرى

يبنيها عقل سخيف، لا أتذكر كم يقترب كتابك ذاك إلى الحقيقة الموضوعية كما يقال، تتبدى أو لا تتبدى أمام معذب بعد دهر؟ ذلك أمر غير مضمون. لا أحد منا رب حقيقة كليّة، خلاف حقيقة معينة، إلاّ المشارك في صياغتهما، عارف التفاصيل، المخطط أو المنفذ مثلا جريمة يجري تحقيق فيها، حينه يمكنه القول أنه رب حقيقة.. تلك الجريمة.

- معك حق أستاذ إحسان.. يبقى لسرد بريء عن عالم غير بريء بعض القيمة ولو عند متفحص أحداث مثلك فيها دلالات حقائق كلية.. المتفحص قد يكون الروائي المتعمق.. أو أي قارئ فطن شكوك..

- أدري أنتم الكتاب خاصة الشعراء تقولون أدبكم قائم على الذاتية المباحة لا الموضوعية المستباحة، لا بأس، خاصة حين تسحبون تجاربكم، تجارتكم، إنتاجكم إلى ساحة الرداحة، إلى صفحات كتبكم، لعرض المشترك بين كتّاب وقراء، حينه نرى أنفسنا ملائكة من خلالكم، يجتمع أو يتفاوض كلانا تحت قبة محايدة، نتفاهم بالمشترك بدل التكاره بالخاص، داعيك يميّز بين أدب حقيقي وآخر مفتعل يُفرض علينا خاصة أيامنا الحلوة السيّارة هذه.

- ما لا يعجبك أستاذ إحسان اتركه.. لا أحد يرغمك على تناوله.

- فعلا.. للعصيدة عدة مذاقات.. أما أنتَ.. باختصار لا يمكنني الحكم على كتابك ولا عليك إلاّ لو أعود أقرأه بعين الشك الجديدة المكتسبة من حياة طويلة تظهر تجاربها أخيرا في غير صورتها الأولى، إنسان تعرفه ملاكا يتضح شيطانا أو نصف شيطان نصف ملاك.. يعني لو أنت تكتب عنه على اعتباره ملاكا تكون كاذبا النتيجة.. لا قيمة لما تكتب..

- عموما علينا كسر تجربة، رؤية داخلها، قبل كتابة أو كلام عنها سيد إحسان.

- معلوم، الكتّاب، الناس، أنواع، القرود بعضها له ذيل، آخر لا. في الغربة ذكريات كثيرة أبو فلان عن وطن نهرب منه، يلوكها خيالنا، نتغذى منها، تطبخ في مطبخ العقل أو نتناولها فجة.. المذاق أو النتيجة تختلف حتما، البعض تنفعه يكبر إلى سن رشد حقيقي، إلى وسط ذهبي، متأخرا أو يبقى يراوح في سن اليسار الطفولي، اليمين الأصولي، غيره من مرابع الماضي الهيولي.

- تحب المزاح؟..

- سم الذاكرة كيف نحوله إلى دواء؟!

- الذاكرة جذور تمتص أعماق أرضيتنا، تغذي عيشنا، نحن والنبات أخوة. بعد جني المحصول تمثّله، مر حلو.. النتيجة ثانوية!

- أنت كاتب تقدّر قيمة التأملات، خاصة أمام ساحات، مساحات فراغ، منتشرة رغم الزحام والحركة حولنا في الشارع وأبعد، على البحر الهادئ هناك.. على مسطبة المتعبين المتنزهين هذه.. أهل البلد يتعبون من التمشي يرتاحون جواري، أتعب من التذكر أطرح بدني قربهم، لا أحد يسأل الآخر ماذا في قلبك ماذا تنوي عمله اليوم أو في الغد، البشر مع حواسيبهم قلاع منعزلة، متحركة، آخر العشاق يختفون، تنطوي صفحتهم منذ وصولي البلد الأمين.. ساحات العشق تصير شاشات الجات..

- لو المستريح قربك من العجائز يفتح أو تفتح قلبها لك أدري..

- لتخلصها بالكلام من إحساس وحدة وخيبات عاطفية..

- الوقت أستاذ إحسان عند عجائز رغم انحساره أرخص منه عند شباب؟

- أمس وأنا جالس هنا تسألني إحداهن: لماذا لا تقتني كلبا لطيفا يؤنس وحدتك، تدري سيد إحسان مع كلب تمييز الآدمي أسرع، حسنا تتذكر اسمي بعد جلسة عابرة، قلت

سيدتي حضرة الكلب يحتاج أطعمه أتمشى معه أغسله أمشط شعره أحكي له نكات أو يشتكي عليّ عند الشرطة يطلب حقوق الحيوان.. حقوق الإنسان انسيها..

- معك بعض الحق. أنا نفسي احتاج مَن يرعاني، يوفر الوقت، عسى نعوض المهدور على أرض الوطن..

- آدمي آخر شعره كله أبيض يلاحظ إدماني الجلوس في هذا المكان يسألني.. يعجبك شيئا محددا من هذه الزاوية؟ تنتظر مجيء ذهاب أحدهم على تلك الباخرة مثلا؟ مرور سيدة معتبرة تخطط عقد صلة معها؟ أقول له هل لا بد من هدف جيمس بوندي من أي تصرف اليوم؟ هواء البحر يعجبني.. ألا يكفي لجلوس سفارت كلّا حيث يجلس؟!..

- أنا أيضا أتكلم حين أرى الوجه المجاور يساعد على تفاعل عاطفي.

- مرة أسلّم على أحدهم إذا به يسألني: لماذا تسلم عليّ هل أعرفك أو تعرفني؟ أقول له الناس في بلدي يسلمون الواحد على الآخر حين تلتقي العيون في مكان، يدهش يرد لا تسلم علي المرة القادمة لو تراني أجلس هنا.. قلت له أسلّم يطبك طوب يمكنك أن لا ترد.. وضحكتُ، يسألني السفيه لماذا الضحك؟ قلتُ: يفيد الصحة..

- أنا مصدوم من ممارسات أكبر، العشق يصير بزنس، سابقا حكايات الأطفال غير حكايات الشباب، اليوم حكايات الكهول تختلف تماما عنها.

- مضبوط. حكايات كثيرة يمكن سردها حتى عن المدينة حولك قد تنفع لإحدى رواياتك، لا لمجرد تسلية، لا لتدوين حقائق وثائقية عن بلد غربة أو عن بلدنا، إنما لكشف صورة خفية تحت صورة ظاهرة خدمة للحقيقة.. أو نسميها الحقيبة أحسن؟

- قل صورة مركبة للعقل مولانا..

- مَن يركبّها له أهدافه. أدري تفكر أمامي مهووس من نظرية المؤامرة العالمية، أقترب إلى موضوعها، فحواها، تحليلك على صحيفة يوما يقنعني، أقرأه في إمعان مرتين، أذكره جيدا، تقول فيه لكل دولة أو منظومة دول إستراتيجيتها تحققها بالدبلوماسية وغيرها في خفاء وعلن، كذلك للشركات، آخرون يرونها مؤامرة، غيرها. أنت مصيب والله، آخرون.. مصيبة.

- شكرا لإطرائك أستاذ إحسان.. خلينا في المهم.. كلامك يبدأ يشدني.

- لا أبالغ، تلك الفكرة تتعكس في حياتنا اليومية، حياة الناس. تذكر مظاهرات الولايات المتحدة قبل حين تطلب وقف مراقبة الأفراد، اقتحامات شقق في غياب أصحابها تفتيشها دقيقا من غير ترك أثر؟ أمور كثيرة منافية للأخلاق والديمقراطية تحدث هنا هناك، بالمناسبة لا تذكر اسم المدينة الصريح هذه يوما ولا اسم الميدان، لا أريد أن يقال أسيئ إلى البلد في ملاحظات سلبية وهو يستضيفني لاجئا سنين طويلة..

- لا تخف. وكلامك عن مراقبة الأخ الأكبر لنا في صلب الديمقراطية..

- تمام تموز. من زمن وأنا انتبه لغياب الصدفة من حياتنا، لغياب التلقائية، لغياب العواطف، أنا من غير امرأة منذ اختراقي، منذ افتراقي عن زوجتي بعد وصولنا البلد الأمين، قبل عقدين تقريبا، حتى افتراقنا يحدث عن تدبير، حتى البقاء وحيدا يحدث في تدبير، لمحاصرتك، لإيقاعك في حبائل الأخ الأكبر تسخيرك لأهدافه.. تصدق؟

- أصدق كل كلمة تقولها.. غيرك قد تكون له تجربة أخرى وكلام آخر.

- نتكلم عن تغير نوعي في الوعي بعد تراكم معلومات كمي، عن مجيء يوم يرى المستيقظ فيه على قول البوذية ما وراء ستار.. يرى الملاك شيطانا مثلا.. أو العكس.. أنا على خطأ؟!..

- الخطأ يحصل عن جهل أو عن عمد. أنت غير جاهل ولا عابث.

- رحمة على والديك، لاحظ أستاذنا كم ينفعنا أن نكون منتبهين لما حولنا، لأنفسنا. منذ تأكدي من إن معظم الصدف خاصة ذات الدلالة مرتبة كما يراد من قدر أو رب عالمين أو أخ كبير قصد غاية..

- ذلك أستاذ إحسان يقين مجرب، عن تفكير، يُثبت في يوميات، ننظر لاحقا إلى ما حدث يحدث في حياتنا نجد لتفاصيله معاني جديدة مذهلة!

- سيادة الكاتب المحترم.. نحن جميعا مخدوعون لا ندري.. لأننا طيبو القلب أكثر من اللازم!

- لو أكتب ذلك عنك يُقال تسب الحضارة.. تذمها.. تخرج عن الواقعية.

- أصل رباط كلامنا، الحادث الشنيع الذي تتكلم وسائل الإعلام عنه. يجلس قربي هنا مكانك شاب في عمر ابني، ينظر إليّ، إلى البحر، أسلّم عليه يسلم عليّ، حالا أخمن هو

عراقي، بلا تعليم جامعي، نظرة عراقي دافئة، فيها شجن، متخرجو الكليات في اعتقادي نظراتهم فيها ثقة، كلماتهم غير عشوائية، من فضل التعليم الجامعي عليهم. أهوّن الحال أفكر كما قلتُ لك: لا تدير بال سيد إحسان، في الغربة يتساوى الأقرع وأبو شعر، ذاك يلقى مَن يضع على رأسه باروكة تظهره جيمس بوند هذا يجد مَن يحلق شعره يظهره أفرار جيش أو سجين زندا.. ما فائدة الدراسة والشغل والكفاح قل لي بربك يا كاتبنا والساحة قلتُ لك يملكها ردّاحة!

- لتغيير الصورة ومحتواها دائما إلى أفضل.

- بَطل! تدري.. السؤال عند التقاء أجنبيين هنا عادي.. من أين حضرتك قادم.. كم سنة لك هنا.. غيره.. أقول له اسمي إحسان.. مهندس عتيق.. يقدم نفسه باسم حسان، الولد ذكي يتبيّن من الكلام، أو أحدهم يدفعه إليّ عن سبب.. لا يمكنني الجزم.. يسألني: حضرتك اشتغلت في الفيضان سابقا؟ يختفي عامل الصدفة من اللقاء عندي، أسأله بالعراقي مباشرة: كيف علمت.. لازم أنت جني أو آكل مع الجن! يقول أنت من عمر أبوي تعرف أكثر، يقص عليّ حكايته، حكاية رغم غرابتها عادية تشبه حيوات آلاف العراقيين.. إلاّ توقيت ظهوره واختفائه وما يتبع!

- لا غرابة تفاجئنا منذ ظهور جلجامش وألف ليلة وليلة..

- يسألني هل تدري إن اسمي حسان أعطاه أبوي لي عن اسمك إحسان تكريما لك؟ أدهش طبعا أسأله عن أبيه، لماذا، كل ذلك ليس المهم، المهم يتضح بعد حين. يتبيَّن أبوه اسمه شتيوي، فلاح محترم أعرفه من اشتغالي على موقع الفيضان، أساعده، أعطف عليه، تنشأ مودة بيننا، كذلك مع غيره.. غضبان زميل المدرسة ابن الشيخ ضاري هناك، أسأله عنه يقول قُتل دفاعا عن مطار بغداد أيام غزو تخوم الألفين. المهم، يعطيه أبوه اسمي، يتمنى حسان اللقاء معي بلا طائل، يخبّرني عن نزوحهم من ديرة إلى أخرى، عن افتراقه عن والده، هجرته إلى إيران إثناء حرب العراق معها بين الآلاف، منها إلى سوريا إلى مهجر البحار والثلج يكرر نسخ صورة تشتت العراقيين المستمر على يدهم يد غيرهم، لا يسلم من ذلك الدمار حتى غضبان ابن الغني، ولا أبوه شتيوي المعدم ابن الفقير، ولا أنا متوسط الحال، الجميع، في الداخل والخارج، الجميع يُهدم، قربان آتي الأيام. المهم أكثر، وقتها أرى وأنا أتكلم مع حسان سيدة أوربية على المسطبة المجاورة لنا، في عمر يقارب عمره، ينظر إليها تنظر إليه. أسأله: متزوج، عندك أطفال، تشتغل؟ يرد حسان متزوج إيرانية، عندهما طفلة، يشتغل. لا يذكر ماذا أين، اسكت طبعا.. المساء يزرق، تنهض السيدة

تمضي في شأنها، انتبه إلى نسيانها حقيبة عند مكان جلوسها، أحرض حسان كي يلحقها ينبهها، لا يتعجل، من موقف الباص تختفي السيدة، ينهض حسان يمضي يعرج قليلا إلى مسطبتها، يعود مع الحقيبة يضعها بيننا قائلا: حرام ترك رزق سائبا.

- يعتبر حقيبتها غنيمة.. حواسم.. ذلك من أخلاق الحروب!

- أعيش لحظة لولبية حادة.. مخرز من السماء إلى الأرض يمر في رأسي.. انتهره: الحقيبة ملك غيرك.. تدري معنى ذلك عندي؟ يبدأ نقاش بيننا.. بلا معنى في الظاهر.

• • •

يرد حسان عليّ:

- سرقة الكفار حلال يقولون.. أو تظن عمو إحسان فيها قنبلة فعلا؟!

وأنا أرد عليه:

- محتمل جدا ابني.. من غير احتمال مشئوم الواجب الإعلان عنها.. خابر الشرطة.. أنا بلا تلفون.. سلمها سائق باص.. مراقب مخزن..

- مستحيل. هذا رزق من الله. حقيبة جميلة ترى. أشياء ثمينة فيها حتما.

- لهذا هي مخيفة.. ملكة جمال تقول زميلاتي يشبهن فأرات.

حسان خالٍ من لطف أتصوره فيه، نزعة ربح عارمة تأخذه، تبرق عيناه، يشرح لي:

- عمو أسلوب الحقائب المتفجرة انتهى مع تمدين الفلسطينيين وراء دهلان.. العنف من الماضي.. يلجئون إليه في بلداننا هناك لا في أوربا.. معقول لا تدري؟!

- ولماذا المخاطرة وإهانة النفس من كسب سخيف.. ما نيتك حسان!

- يحيا العدل عمو إحسان.. مناصفة.. شكلا محتوى.. فيفتي فيفتي.

- الإعلان حالا عنها.. رميها إلى هناك.. محتمل تنفجر أي لحظة.

- عمو.. لي سمع شيطان شم كلب.. التقط الخطر لو فيها صدقني..

• • •

- أستاذنا الكلب.. العفو.. أستاذنا الكاتب.. أكتشف باختصار نوعا آخر من البشر تنتجه الحروب والفوضى كما تتفضل، حسان نقيضي، مستعد خسران حتى حياته مقابل كسب واهم غير مشروع، لا يرى شيئا حقيقيا ذا قيمة عدا الملموس، يتحتم عليّ الصراخ حينه أمام الملأ، الإعلان عن خطر في الحقيبة، إنتزاعها من ذلك الموهوم عنوة قذفها إلى أين، لا مكان تقذف إليه من غير أذى الغير، قبل وصول البحر هناك معها أصل السماء السابعة، المكان كله يتحول فجأة علبة مغلقة، محاولة إقناعه بلا فائدة.. التردد هلاك..

- أخيرا ما عملت أستاذ هلكان.. العفو أستاذ إحسان!

- واحدة بواحدة. أقرر تركه والمضي بعيدا دون ضجة، تُبلِّغ عن جريمة تُتهم بها أحيانا من قضاء متحيز، متأكد من ذلك، لا أريد الزج في جريمة محتملة مع ظهور حسان المفاجئ، صدفة مشبوهة كيف الحال مع صدفتين في آن، تذكر فيلمين ببطاقة واحدة؟ أبتعد، الحقيبة وشك انفجار في خيالي أي لحظة، عن مبعدة يبدو حسان مسرورا من ابتعادي.. من إخافتي ربما.. لا أدري حكايته تماما.. أخيرا يحمل حسان الحقيبة يتبعني.. أشير جازما أن يبتعد عني.. أسير سريعا.. اخلص منه.. تفصلني عنه مجاميع البشر.. أفكار خير وشر..

- أخشى أنت تتكلم عن التفجير المريع وسط المدينة قبل أيام؟!

- بالضبط.. بعد حين.. من هناك.. من وراء الزحام الكبير البعيد أسمع الانفجار الرهيب.. في أخبار التاسعة مساء يذكر التلفزيون بقية التفاصيل.. لا يبقى منه شيء غير خصيتيه معلقتين على أذنه!

- تصوير المكان من كاميرا عامة يكشف تخريبا محدودا.. لحسن الحظ لا ضحايا بشرية غيره..

- وأنا أكرر على حالي قد يرمي محقق مسؤولية الحاصل على.. الاتجاه المعاكس.. على مَن يجالسه مسطبة.. تظهره كاميرا أخرى خفية!

- حكاية غريبة بعض الشيء.. الأغرب حصولها في مدينة متحضرة!

- الغريب عندي لا في ما يحصل، الانفجارات حتى في تل أبيب، الغريب أنهم لا يلمسوني لا يسألوني في الأقل عن كلامنا، عما بيننا قبل التفجير، يعني هم يعلمون كل شيء، لا يحتاجون المزيد من التفاصيل، ذلك يثير تساؤل: كيف لهم معرفة كل شيء والحادث متصل بي بطريقة وأخرى؟ أصير أشك حتى فيك، أنت مرسل إليّ منهم؟ تسبر علاقتي مع الحادث، لكنك لا تسأل عنه، لا تقترب إليه، في ذلك أيضا شك!..

- التساؤلات لا تنتهي. من غيرها لا وصول إلى حقيقة..

- في الأقل يمكنهم السؤال منّي من باب الإيحاء أنهم لا يعرفون كل شيء، عن تدبيره، تنفيذه، يفوتهم هم الخبراء الاختصاصيون بكل شيء؟ مشاركون فيه أهدافهم بعيدة؟! الرجل الذي يعرف كثيرا حياته في خطر رأي هتشكوك.. كيف لا أصير أخاف على حياتي.. خوف بزون مطبخ!

- أستاذ إحسان ترسل رسالة إليهم من خلالي أفهم؟!

- أو هم لا يسألون كي لا يخاطروا لا يكشفوا شيئا مما يعرفون؟!

- لا أدري، أدري ان الكمال موجود على الأرض.. في البراري الضارية.

- جاري أقول له: حين أضع الطبق في مطبخي أحذر من صدور طقة تزعجك. يرد: على العكس، اصدر ضجة لأعرف أنتَ في البيت. منتبه؟

- تقصد يكشف أنه ينصت عليك لا يدري؟

- معلوم، يرصد وجودي في البيت أو خارجه، في وقت آت يُسأل!

- على أي حال من ثرثرة يمكن معرفة الكثير. لا ثرثرة امرأة طبعا فنية تستخدمها.. لدفن كواكب سيارة.. في فم صغير.
- تنتبه أستاذنا الكاتب حتما استَخدم أحيانا كلمات مواربة، شركات، قوة خفية، الحقيقة ذلك قصد الدقة، لغياب أو تغييب كلمة أخرى مطلوبة.
- أفهم. من امرأة منقبة لا يمكن وصف غير ما يشف النقاب عنه.
- وهكذا أفهم حال الكتّاب حين يلجئون إلى الرمز.. إلى حصر أشياء كبيرة على رقعة صغيرة من الورق.. أنت أيضا هكذا اعمل رجاءً.. لو تكتب عني.. تسمع المزيد مني لو تشاء.



▪ **خبر ١٧**

طائر الثلج

في البداية لا يصدق أحد منهم حكاية طائر الثلج، بل إنني وكلبي الأعرج لا نصدقها أيضا لولا أن صديقنا الأعشى يلمحه قبلنا غير مرة يطوف فوق أكوام الثلج في ليال قمراء ينيرها البدر.

في هدوء الكائنات، في السكون المطلق، نسمع حفيف ذرات الثلج تفلت من كثبانها هاربة مع الريح، تتململ تلك الكثبان، في سكون مطلق أيضا، كل شيء يتم في سكون مطلق لا ندري لماذا، ينبثق منها، أبيض، حييا، هادئاً، كما نعرفه جميعا قبل أن تغيبه تلك الميتة الشنيعة عنا، نتأكد من الجريمة عندما نرى على رأسه – رأس الطير– البقعة الحمراء الدامية التي نراها على رأس صديقنا يوم مقتله مرميا على قارعة الطريق مفتوح العينين يوجه إلى السماء بعيدا عنا نظرة جامدة لا لوم فيها لأحد تشبه النظرة الزجاجية التي يوجهها إلينا طائر الثلج عند ظهوره في الليالي المقمرة من بين الكثبان البيضاء المتراكمة على مكان الحادث.

عند اجتماعنا قرب مصباح الشارع نستعيد بالطبع ذكرى القتيل، لا نتمكن إضافة شيء إلى شكوكنا الكثيرة، إلى ما نعرفه، غير حكاية طائر الثلج تلك، البعض يسلّم يؤمن بها، بعض آخر يبقى يواصل إنكاره لإمكانية حدوثها أو أن تكون لها أية علاقة مع مصرع الشاب المفاجئ. غير أني وكلبي الأعرج على ثقة تامة من حقيقة ذلك الطير العجيب ما دمنا بعيدين عن كل ما يحدث، على ثقة من براءتنا. لا يطول التردد كثيرا نتغلب عليه، نتوجه جميعا إلى مكان الواقعة، نتحقق مما يجري.

الثلج يهطل على المدينة أياما عديدة، يغطي كل شيء، لا يمكن تمييز الأرصفة عن جادات الشوارع. غير أنه في الحقيقة والواقع، كما يقال عند التباس الحال، ليس للثلج أية علاقة بما نبحث عنه، يمكن للرمل أو الهباب أن يحل محل الثلج في مدينتنا، ليس ذلك هو المهم، المهم عندنا التيقن من كنه الطير الثلجي الأبيض، المدمى في رأسه، الذي يظهر في الليالي المقمرات، الأكثر من ذلك معرفة ما إذا لذلك الطير الغريب أية علاقة في مقتل آخرين لا يُذكرون في أخبار، لعلنا نكشف أخيرا سر مقتلهم، مَن يدبره من عشاق الجرائم والولائم.

نمكث خلف الأشجار، غير بعيد عن مكان الواقعة، نتربص ما يمر يخطر في السكون الأبدي، نوافذ البيوت موصدة، الستائر

مسدلة، لا أحد خلفها ينشغل بما يمكن أن يحدث في الشارع. بالمناسبة، يبقى صديقنا مرميا في هذا العراء حتى الصبح، عندما تأتي سيارة الأزبال تنظف ما حوله من أوساخ تتركه في رقدته الهادئة، دمه يتفرع من رأسه رافدين، يلتقيان عند قدميه يكملان مثلث موته، يهمس أحدهم:

- اعتقادكم يظهر طائر الثلج صدقا حقا الليلة؟

يرد آخر من خلف شجرته، وليس للأشجار بالطبع أية علاقة بما نبحث عنه، يمكن للصخور أو الأحجار أن تحل محلها في حكايتنا:

- ليس غير عيون القتلة يمكنها أن تراه.

يدهش الأول:

- لماذا؟

يرد الثاني:

- لهم عيون حاذقة.

صمت.. مرة أخرى يتساءل الأول:

- اعتقادكم نتمكن أخيرا من إمساكه؟

من خلف الشجرة أو الصخرة.. لا يهم، يرد الصوت الثاني:

- ليس غير أيدي القتلة يمكنها إمساكه.

يدهش الأول.. لا يشبع من الدهشة:

- لماذا؟!

بذات اللهجة اللامبالية يرد الثاني:

- لأن لهم أيادي باردة.

الصمت ثانية.. والصوت الأول ثانية:

- وما شأن الأيدي الباردة بذلك؟

- معلوم، الأيادي الدافئة لو تمسكه يذوب بينها، هو من ثلج. تدري ذلك. أما أيادي القتلة فهي باردة لا يذوب طيرنا بينها، ذلك منطقي تماما.

ويتساءل الصوت الأول في دهشته المسهبة المركبة:

- أناس كثيرون أيديهم باردة!

يرد الصوت الثاني مستسلما:

- لا أدري أخي.. ابتلينا.. ذلك ما أعلمه من جدي العجوز!

يلح الأول:

- و.. يداي، يداي باردتان!

يستنتج الثاني:

- لعلك واحدا منهم وأنت لا تدري.

في صحبةَ كلبي الأعرج، وكلبي الأعرج لا دور له أيضا في الحكاية غير انه لصيقي، ظلي، نقف خلف شجرة مجاورة،

ننصت إلى حديث الحاضرين نرقب ما يمكن أن تتبجس عنه كثبان الثلج والظلمة، غير واثقين من أيما شيء سوى من براءتنا، لا نهتم كثيرا في غمرة التوقع لما يدور بينهم، رغم إن يديّ باردتان، من منا غير بارد اليدين في الزمهرير الأزرق هذا! المعارف والأصدقاء يفركون أيديهم في الخفاء يهمسون بعضهم لبعض أنها دافئة، إذاً لا علاقة لهم مع أمر قتله نفهم، لا نحفل أنا وكلبي الأعرج بذلك، نحن على ثقة من براءتنا، من إن كل شيء يتضح في النهاية، لا بد أن يتعرف صديقنا طائر الثلج على هوية قاتله..

فترة طويلة لا نسمع خلالها غير أنفاسنا، كأننا في مهمة خاصة على كوكب آخر مهجور، بعضنا يود الرجوع إلى مهجعه، أحدهم يخرق الصمت المتجمد حولنا يعلن:

- كل مَن يخاف طائر الثلج يحمّل نفسه تهمة التخلص من الراحل!

ينغرز الجميع أوتادا في أماكنهم، ما يدور في الأذهان من قبل سرا يصير شاخصا بيننا، إذا ما يظهر بعد قليل طائر الثلج فإننا سوف نعرف على وجه اليقين هل يكذب الجد العجوز أو هو عليم حكيم، وهل القاتل موجود بيننا أو هو من طينة ودنيا أخرى!

يستولي النعاس على أجفان أحدهم يغرف كفه حفنة من الثلج يمسح وجهه، وليس للثلج أضيف دور في هذه الحكاية، سوى إن المرحوم يختار أن يكون بعد رحيله طائرا من ثلج، في إمكانه بالطبع أن يكون غير ذلك، لكنها مصادفة ربما أو حكمة تجعله يختار تلك الهيأة، ولعل الأمر كله من بدايته إلى نهايته محض كذبة، أنا وكلبي الأعرج لم نكن واثقين حتى ذلك الحين من أي شيء غير براءتنا.

يتم كل شيء في سكون مطلق وحشي لا مثيل له.. لا ندري هل نحن نرتجف من الخوف، من البرد، أو من الجوع، لا نسمع هذه المرة غير اصطكاك أسناننا.. ططططق.. ططططق.. إذا به يظهر لنا، نعم طائر الثلج، لا أحد يدري من أين، يحط في هدوء على كثيب ثلجي مقابلنا لا نسمع منه صوت رفيف جناحيه، رغم تطاير ندف فضية لامعة كثيرة منهما، يقف أمامنا مكفنا البياض، يصوب إلينا عينيه المدورتين الواسعتين، الطرة الحمراء تطرز رأسه، في المكان الذي تهوى فيه، على يافوخ صديقنا الراحل، شظية الانفجار أو الضربة القاتلة، لا ندري تماما كيفية قتله، لأننا بريئين كلبي وأنا، علينا فحصه.

ويا لدهشتي الكبيرة ركبتاي تخذلاني، أنا أكثر الجميع خوفا، أنا الذي أكثرهم ثقة في براءتي. لا أقوى على نطق حرف، أرى

بعضهم يخطو بطيئا يتقدم إلى طائر الثلج لرؤيته عن كثب، يتطاول أحدهم يمد يديه إليه، لا يتحرك الطير من مكانه، تحيطاه اليدان في هدوء ونعومة، لكن ما أن تحتضناه لتمسكاه حتى يصعقنا المشهد جميعا، يختلج الطير كالمحتضر يتحول إلى كومة هشة من الثلج في لحظات، يهتف الهاتف:

– الجد العجوز لا ينطق غير الحق.

وما أن يسحب زميلنا يديه يرجع إلينا حتى نرى والدهشة تسربلنا حيرة طائر الثلج وراءه يرف جناحيه في السكون مجددا، ويبرز من ذلك الكثيب مرة أخرى أمام أعيننا نشيطا..

يذهب إليه آخر من بيننا.. يحاول إمساكه.. يتحول الطير ثانية بين يديه غيمة بيضاء.. ثم يعود حيا.. لا يبقى مكان للخوف بيننا مع الدهشة والمفاجأة، يجرب الجميع الاحتفاظ به بين أيديهم، حرارتها تذيبه كل مرة، كل مرة ينتفض، يرفرف بجناحيه، يعود إلى تهويم أمامنا..

الأخير منا يجرب حظه معه.. الأكثر براءة.. أدنو إليه لا أدري عن يديّ.. دافئتان هما أم لا، لكني مطمئن، ذلك لا يعني شيئا، أيدي الكثيرين من الناس الطيبين باردة أيضا، كأيدي القتلة. أمد يديّ وادعتين إلى طائر الثلج منتظرا أن أحس برودته أو رطوبته أو نبضه بين كفيّ، يتضح إنه غير بارد،

غير رطب، هو طير مثل كل الطيور الأخرى، طير حقيقي دافئ، ضربات قلبه متلاحقة بين أصابعي..

لا يطول أمساكي له كثيرا.. لا يتحوّل غيمة.. لا يتفتت ثلجا ينهار.. يلوي عنقه تدريجيا.. الغريب حقا.. يموت فعلا بين يديّ!..

الطرة الدموية التي نعرفها جميعا تظهر على يافوخه الابيض!..

كلبي الأعرج ساكن قربي.. لا ينبح.. لا يفضح.





صدر للمؤلف

١- خطوات إلى الأفق البعيد : قصص - دار آل البيت١٩٦٧.
٢- ضباب في الظهيرة : رواية - دار الغري ١٩٦٨.
٣- شقة في شارع أبي نواس : رواية - دار العودة ١٩٧٢.
٤- الجسور الزجاجية : رواية - دار عويدات ١٩٧٥.
٥- الشارع الجديد : قصص - دار الرشيد ١٩٨٠.
٦- نجوم الظهر : رواية - مجلة أوراق ١٩٨٦.
٧- حب في موسكو : رواية - دار أوراسيا ١٩٩٢.
٨- ليلة بغدادية : رواية - دار أوراسيا ١٩٩٣.
٩- بابل الفيحاء : رواية - دار أوراسيا ١٩٩٥.
١٠- صيف في إسكندرية : رواية - دار النبوغ ١٩٩٨.
١١- الجنائن المغلقة : رواية - دار بوديوم ٢٠٠٠.
١٢- ليالي الأنس : رواية - مؤسسة نوافذ ٢٠٠٩.
١٣- على تخوم الألفين : رواية - مؤسسة نوافذ ٢٠١٠.
١٤- أخبار أخر الهجرات : رواية - مؤسسة نوافذ ٢٠١٢.
١٥- غراميات بائع متجول : رواية - مؤسسة نوافذ ٢٠١٤.
١٦- أخبار أخر العشاق : رواية. شمس للنشر والإعلام ٢٠١٦.
١٧- الغرام والحرام : رواية.
١٨- الحكاية من الداخل : رواية سيرة.
١٩- الروائي والرواية : نقد ومقابلات.
٢٠- النهر يعود إلى منبعه : رواية

كتب صادرة ترجمها برهان الخطيب إلى العربية :

١ المنتصرون . رواية. دار التقدم ١٩٧٧

٢ بخارى. رواية. دار التقدم ١٩٧٨

٣ تلك الأفراح . رواية. دار التقدم ١٩٨٠

٤ أملاك . رواية . دار التقدم ١٩٨١

٥ سوتنيكوف . رواية. دار التقدم ١٩٨١

٦ آخر العنقود . قصص . دار التقدم ١٩٨٢

٧ أقاصيص من طاجيكستان. دار رادوغا ١٩٨٢

٨ حكايات لأدباء روس . قصص . دار رادوغا ١٩٨٣

٩ نجم السهوب . رواية . دار رادوغا ١٩٨٤

١٠ الشاطئ . رواية. دار رادوغا ١٩٨٤

١١ عندما تعشوشب الصخور . رواية . دار رادوغا ١٩٨٥

١٢ الفارابي . بحث. دار التقدم ١٩٨٦

١٣ ارهابيو الموساد . بحث. دار التقدم ١٩٨٧

إضافة إلى مراجعة وتحرير العديد من الكتب آخرها "موسوعة الثقافة الفنية العالمية" ٢٠١٧



(+2) 01288890065 / (+2) 02 27238004

www.shams-group.net